روايات الهلال

صاحب السعادة اللص

خيري شلبي



روايات الهلال
REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٩٤ – اكتوبر ١٩٨١ – ذو الحجة ١٤٠١
No. 394 — October 1981

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: الدكتور حسين مؤنس
سكرتير التحرير: موسى عبد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب

أسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « روايات الهلال » الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٣٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا : ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرش سورى »
لبنان : ٢٥٠ ق . ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنية »
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
نصف ريال »
« عز العرب – القاهرة »

إهـــداء 2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية





مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمـــد تركي

صاحب السعادة اللص

مجموعة قصص



دار الهلال

إهداء

إلى طفلتى العزيزة « إيمـــان » •• التى ولدت فى واحدة من هذه القرى ، فى نفس الزمن •

خيرى

السقوط فى بئر الأحزان



السقوط في بئر الأحزان

كان الليل قد وصل الى الذروة ، وصدمت ، وخيل الى اننى نزلت قرية لا اعرفها . ثم استيقظ الحلم الذى طالما راودنا ونحن طلبة فى الابتدائية أن تتحول قريتنا الى مدينة ، وكنا نزعم فى حماس كلما ضمنا مجلس أن بيننا وبين المدينة خطوات صغيرة ، ألسنا نقيم النوادى الرياضية ونفتح المراكز الثقافية ؟ أليس فى قريتنا نقطة بوليس وعساكر يستخدمون الخفراء فى خدمتهم ؟ .. ولا تسألوا عن الاحتفال العظيم الذى اشعناه فى البلدة يوم افتتح « عندنا » فصلان اعدادى .. وكان ثمة حلم توارثناه من اخوتنا الكبار جيل الأربعينات ، ذلك هو أن تضىء الكهرباء شوارع قريتنا ، وكثيرا ما توغل بنا الحلم فى ابعاد القمر فخططنا الشوارع والطرقات والمداخل ، بل وحددنا نقطا تصلح لاقامة محطات البنزين أما المحطة التى سيقف عندها القطار وتسمى باسم بلدتنا فحدث عنها ولا حرج كما يقولون ، والواقع ان صورا باهتة من هذا الحلم كانت تتراءى لنا كلما شاهدنا جمعا من المزمعين السفر ، نعم ، فالمدينة فى نظرنا كانت أيضا ، هى السفر ، هى الذهاب والمجىء بالمتاع . وقد لعب مرشحوا الدائرة طوال ثلاثين عاما أو تزيد من عمر وعينا أدوارا بهلوانية على مسرح خيالنا . فلا بأس من عربة « قصراوى » تجىء من المدينة — التى بها « المركز » — الى قريتنا رائحة غادية طوال مدة الدعاية حتى اذا ما نجح المرشح خرجت العربة وذهبت بلا عودة .

كنت قد نزلت كعادتى منذ عشرين عاما فى محطة المركز ، مفضلا اياها عن المحطة التى تواجه بلدتنا مباشرة ، على أمل أن احتمال وجود عربة أجرة فى المركز قائم وقوى ، فى حين ان الوقوف على المحطة المواجهة لبلدتنا هو السراب بعينه فى ليل كافر مجنون . ولست ادرى لماذا كنت أحس أن الليل — لأول مرة فى

حياته معى ــ يفقد طعمه اللذيذ عند السفر ، فطول عمرى أحب السفر فى المساء وفى البكور ، ففى خيالى البعيد ذكرى من أحباء وأعزاء طالما نادتهم الأشواق والأفئدة فى رحاب المساء .. آه لو ينفتح البـــاب فجأة ونرى فلانا داخـــلا . هكذا نقوم أمى فى كثير الأمسيات . غير ان السفر لا ادرى لماذا فقد بهجته فى ذلك المساء ، لست أدرى ان كان السفر أو الليل مسئولا عن افساد كليهما !

كانت البهجة التى خرجت بها من منزلى فى المدينة قد آبت فى عاصمة المحافظة الى الشعور بالـــكلال والارهاق الشديدين ، ذلك أن جسدى قد تلقى من الاهانات قدرا هائلا ، ابتداء من الأتوبيس الذى استخف بنا جميعا ولم يحضر الا بعد ثلاث ساعات ، ومرورا بموقف « أحمد حلمى » ، وخذ عندك : السقيفة التى تقف تحتها عربات المحافظة التى اعنيها غير موجودة ، ولا هى ولا غيرها من بقية الخطوط ، وشبح مؤامرة يجثم على الصباح ، ولا احد يريد أن يرد عليك ، غير أن وفـــودا من اللاهثين يهرولون خلسة وراء بعضهم كالقرود أو اشد ذلة ، يجرجرون أطفالهم ويتعثرون فى حاجياتهم ، فتقذف ببصرك وراءهم ، فتراهم يتحدفون فوق عربة مرابطة على مبعدة ، والسائق يشلت لهم ويشدهم من اقفيتهم ، ويصرخ اطفال وتكسر نظارات وتنشد كرافتات وتنهار اناقات سهر فى تدبيرها .. لست احسن منهم بالطبع أنت تستخفهم أى نعم ولكنك مع ذلك تزحف نحوهم على أمل أن تحدث المعجزة ، أن يقف السائق بنفسه ويطرد راكبا ويقول لك تعال انت ، الحق انك سترى هذا الأمل يطل من اعينهم جميعـــــا لا فرق بين افنـــــدى وجلباب ، بل سترى ناسا يبدو بما لا يدع مجالا للشك انهم من علية القوم المحترمين يتزلفون للسائق فى تودد مهين كريه ، وسوف تدهش حين ترى السائق يعاملهم بفهم حقيقى لهم : يعـــاملهم باعتبـــارهم أوباشا حتى وان كان واثقا انه من بينهم ومن صلبهم !

تزغدك أذرع وتزيحك أكتاف ، وتجلدك ملامح ملتوية فى غموض عدوانى ، كل يتدثر بوقاره الزائف الى حد الرغبة الواضحة فى فرضة عليك بالقوة ، وانت تدعه فى حاله وتتدرع انت الآخر بوقار غير لائق عليك ، فكيف يتسنى لك فى هذه اللحظة أن تختـــــار

الوقار الذى على قدك ! انه وقار السلام ، هو يقف بجوارى ، ذليلا مثلى ، مضروبا بالصرمة القديمة مثلى ، ومع ذلك يوهمنى أنه أرفع مستوى ، ويلوح لى بحقيبته السمسونيت ، ويخايلنى بنظارته البرسول خلعا ولبسا كأنها لعبة فى يد طفل ، ويذب الهواء والبعوض بالجرنان الملطخ بعرق الحبر ، ويتيه علينا بنظرات طاووسية ، ولابد اننا فى نظره رعاع ، والا فلماذا يتعفف عن مشاركتنا فى الحديث وتداول الأمر ؟ .. يبح صوتنا من العلو حوله : كيف يفعل السائقون بنا هكذا ؟ .. ماذا نفعل ؟ .. لكنه غير منتبه اليك ، أنه يتنمر لعربة مقبلة ليكون أول من يقفز داخلها . وأنت من فرط الغيظ والمهانة لا ترى ظهرا ولا عصرا ، انما ترى الغروب قد دخل فجأة وادركك المساء فى احمد حلمى . ولو لم يكن هذا اليوم يسمى فى النتائج بالعيد ، ويصدق الناس وانت مثلهم تصدق ، لفكرت فى الرجوع ، الا ان رحلة الرجوع تهون عليك مشقة المواصلة ، والواقع انك — بقدرة قادر — تكون قد سافرت حقا حتى وان كنت فى أحمد حلمى ما تزال ، وترابطت فى ذاكرتك حوارات ولقاءات ومفاجآت ، وترتبت أمور وصارت العلاقات قائمة ساخنة حية لا ينقصها الا لحظة اللقاء . فهل تستطيع أن تمزق نفسك من هذه السدى وأنت لحمتها ؟ .. كيف ؟!

تسلم نفسك للسمسار يقودك الى عربة فى احدى حارات شبرا البعيدة ، وعليك باديء ذى بدء ألا تناقش اى أمر أو تخضعه لمساومة ، فاذا كان من هو أشيك منك وأرفع منزلة يلثمون الأيدى ويضعون فوقها نقودهم فليس عليك ، وأنت قليل النقود مهما قبضت — الا أن تقبل أى وضع ، ولعلك — ان كنت ممن يقرأون الكتب — تتذكر صورة كتبها ارهابى يهودى تقول : أنك لو غطست انسانا فى بئر وتركته فانه سيحاول أن يطفو وقد يطفو ، أما ان نزلت به الى القاع السحيق فان منتهى أمله يكون التنفس ، مجرد التنفس ! وحتى ان تذكرتها فهى لن تفيدك فى شيء ، بل انك ستطردها باعتبارها هرش مخ .. وقد رأيت أفنديا محترما يتأبط جريدة مطوية وحافظة جلدية أنيقة ويرتدى افخر الثياب ويبدى استعدادا للنوم تحت الكرسى فى المسافات المتاخمة لنقط المرور .

غير انك في النهاية لابد ان تصل ، هذا مثل حقير جدا من الأمثال الشائعة فى قريتى ، أى نعم سـوف تصل ، ولكن أى وصول ؟ ..

وقد وصلت الى عاصمة المحافظة التى يتبعها اهلى ..

ثم كان على أن أركب القطار منها الى مدينة المركز . وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة وليس من قطار ذاهب الى هناك الا فى منتصف الليل على الأرجح ، ذهبت الى موقف العربات ، لم أجد عربة واحدة ، ولكننى وجدت شخصين يقفان ففرحت وظننتهما مسافران فداخلنى الأمل فى أن السفر فى هذه اللحظة لا يزال مشروعا ، فلما اقترب منى أحدهما تبين لى أنهما سمساران ، وان سيارة يمكن أن تقلنى الى مدينة المركز نظـير عشرة جنيهات . والعشرة جنيهات هى كل المبلغ الذى دبرته للرحلة من اولهـا الى آخرها ، فأنا موظف بسيط أتقاضى ثلاثين جنيها فى الشـهر ، وبمناسبة ما يسمى بالعيد قبضنا مبكرا فتبرأت من مرتبى وأزحته على زوجتى لتتحمل مسئوليته الشائكة ، وكان من المقرر الا اسافر لكنه ـ بمناسبة العيد أيضا ـ انعمت علينا المؤسسة بعشرة أيام بقشيشا ، بموجبها لبست بدلة كاملة وكرافت وحذاء لامعا وامسكت حقيبة واشتريت علبه سجائر كليوباترا كاملة « عشرين » اشتريتها من ماسح الأحذية فى أحمد حلمى . فما ان وصلت الى عاصمة المحافظة وجدت أن ما بقى معى لا يزيد عن ستة جنيهات مطوية بعناية وموضوعة فى جيب سحرى فى حزام البنطلون ، باستثناء قليل من البرايز والقروش فى جيب الجاكتة .

رجلى فوق رقبتى ذهبت الى محطة القطار وجلست على الدكة الخشبية انتظر ، وأرى أشـباحا من ذكريات قديمة انبعثت شيئا فشيئا . وسار ملمس الدكة الخشبية يبعث فى جسمى برودة لذيذة وصرت أنهد وأتهالك فوق حقيبتى فلما جاء القطار بدا كتنين خرافى ، وكان خاليا الا من باعة اللب والحلوى والمرطبات الساخنة ، والعجيب أنهم ما كادوا يروننى اجلس فى العـربة حتى حملوا بضاعتهم ومروا جميعا على وقد استأنفوا النداءات بنفس الحماس الآلى ، وراحوا وجاءوا عدة مرات ثم تخاذلوا شيئا فشيئا وخمدوا

من جديد . ثم جاء الكمسارى ونظر فى وجهى واخرج دفتره وفتحه ووضع الكربون وسحب القلم من اذنه ونظر الى ، واتخذ وضعا جعلنى أحس أنه يتحدانى باعتبارى أحاول أن أكون أفنديا محترما . احسست بسخف بدلتى وحقيبتى وهبطت شخصيتى الى الارض وانا ارانى مضطرا لفك جنيــه ، وأدعبس فى جيبى واخرج كل رصيدي بكل الحرص لأفتحه ببطء وانتزع منه جنيها ، كانت الفكة التى معى تنقص قرشا واحدا ليكتمل ثمن الوصول والتطويق وأصر الكمسارى عليه فأحسست نحوه بالكراهية ! . ثم ان القطار أخذ يغوص فى قلب الليل ، الليل يخفت وتتباعد البثور الضوئيه عن جلده الأسود السميك ، والقطار كسكين الجزار يخرط ويخرط ، وبقع الدم الداكن تظهر من حين الى حين حيثما هــدأ السكين على أحـــد الأرصفة .

وكانت بقعة الدم الكبيرة قد راحت تزحف نحــو وجهى حتى غمرته تماما ، وحاولت أن أحجز ضوءها بكفى ، وكرهتها ، فقيل لى اننا قد وصلنا الى آخر الخط اى ان هذه المحطة هى مركزى . فنزلت ، ومشيت على الرصيف تائها ، فلما بدات استمع الى وقع خطوات حذائى عليه بوقعه المنغم اللذيذ ادركت بالفعل انه رصيف مركزى ، وأنه قد تعرف على خطوتى فبعث فيها رنينها القديم ، حينما كنا نسير فوقه مختالين ونحن طلبه فى ثانوية المركز تملؤنا بهجة لا حد لها وكأننا الفزاة الذين أصبحوا من أهل المدينة ، وكانت لهجاتنا الريفية المعووجة تنعدل الى لهجة بندرية مستقيمة القوام .

وجدتنى عند نهاية الرصيف على الحافة ، والقضبان تمتد أمامى متشابكة بلا نهاية تلمع كالسراب فعرفت أننى أخطأت الاتجاه ثم ما لبثت أن عدت أمشى الى ان وجدته ، السلم الذى أهبط منه الى نفق يوصلنى الى باب ينفتح على الشـــارع العمومى . أشعلت ولاعتى البوتاجاز التى حرصت أن تكون معى لأتباهى بها على أهل قريتى ، فأضاءت بقعة صغيرة اهتديت منهــا الى آخر ســـلمة فاذا بالنفق غارق فى المــاء ، واذ بى أغوص فيـــه حتى ركبتى ، فخرجت صـــاعدا الى حيث كنت ، ووقفت على الرصيف حائرا

والمـاء يشر من ساقى ، وذهبت الى ناظر المحطة وظللت اطرق عليه الشباك الزجاجى الصغير الى أن فتحه بضجر كبير ، ودون أن يفتح عينيه سألنى عما اريد فسألته هل النفق غارق فى المياه ؟ فقال مشوحا انه لا يعرف ، قلت له انه غارق فى الماء فكيف أخرج الى الطريق والظلام حولى وداخلى ؟ فقال انه أيضا لا يعرف فشكرته ومضيت ، ثم أننى هبطت الى وسط القضبان وعبرتها الى الأسلاك الشائكة واستندت اليها ناظرا فرأيت الأرض فى قاع بعيـد ، فاعتدلت وظللت أمشى الى أن انتهت الاسـلاك الشائكة والتحمت القضبان بالطريق فانحرفت عائدا .. رأيت محطة البنزين على اليمين، والبيت الذى كان لأحد الباشوات واحتلته الحكومة الثورية وحولته الى محكمة جزئية ثم عادت وسلمته الى ورثة أصحابه من جديد ، وبعده رأيت مركز البوليس ، بيت هو أيضا وله حديقة كبيرة اينعت لكثرة المحتجزين فى تخشيبته من تجار المخـدرات وأولاد الليل الأشقياء ، ثم رأيت مدينة أخرى كاملة ، مدينة جديدة تماما ، كانت بخيلة بضوئها تحتجزه دآخلها ، فلما اخترقتها وجدت أكثر من صيدلية ساهرة واكثر من مقهى يلعلع فيه احمد عدوية وانور العسكرى ، وعساكر جيش وسائقى سيارات ، ولافتـات بالنيون تنبىء عن ساعاتية وكهربائية ، وأسماء أجنبية لمحلات ، وبازارات ومعروضات فى فتارين منسقة . ففرحت ايما فرح ، واستيقظ الليل من جديد فى داخلى فجلست على المقهى المطـل على طريق عمومى دائرى . وطلبت قهوة فجاءتنى قرفة ، وسألت عن سجاير كليوباترا فعرضوا على السجائر الأجنبية ، وكنت بحاجة الى التدخين بعد أن نفذت علبتى فامتثلت صاغرا واشتريت علبـة بثمـانين قرشا ، وقررت بينى وبين نفسى أن أختصر مدة زيارتى للبلد يوما أوفر فيه هـذا المبلغ المسفوح ثم رحت أعدد أسماء أولاد شقيقاتى البنات واشقائى الصبيان ، وأحاول أن أتذكرهم جميعا واتخيل ملامحهم ، وحاولت ان ألتمس أعذارا تبرر لى التخاذل فى اعطائهم « عيديتهم » ولكننى لم استطع أن أكره ملامحهم او كثرتهم . ثم دخلت امى فى الحال .. الواقع أننى انا الذى دخلت عليها وكانت متربعة فى القاعة تخيط ثيابنا القديمة وترتق الملاءات أو تصنع من بقاياها ملابس لمولود

جديد . ابتسمت وتحسست حقيبتي التي اضع فيها شيئا عزيزا لها ، طرحة من الحبر كانت أمي تحدث بهـــا الركبان والرعيـان المسافرين ، وكان أبي يفشل دائما في العثور عليها كلما نزل المدينة ، فظلت حلما يشغل بالها الى وقت قريب ، وقد استطاعت زوجتى تدبيرها من « دلالة » محنكة اقسمت أن هذه هي الطرحة التى تريدها أمي ، ولسوف تطرق بابنا لشهور تسعة لتنتزع منا كل شهر جنيها ، كنت فرحا بهذه الهدية القيمة واتعجل الوصول من اجلها .

تلكأ الولد وهو يعطيني بقية ربع الجنيه ، وعز على ان يقف كوب القرفة على بعشرة قروش كاملة ، ولما لم أقل للولد : خلاص يا ابنى ، وفضلت الاستنطاع ، رمقني بنظرة أكثر استنطاعا رمتنى بمعنى جارح فهمت منه انني أفندى دنيء .. وقلت لنفسى انه ليس صادقا على أى حال ، فان كنت انا دنيئا في نظره فنظرته هذه تابعة في الأصل من دنائته . لوى راسه نحو النصبة وصاح في ضجر : معاك قروش يا حوده ؟ .. شوف لى معاك أى فكة ضرورى . فنظر « حوده » بدوره الى مستغربا اصرارى على انتظار القروش . وكنت في الحق ضعيفا ، ليس لأننى أعلنت اصرارى على أخذ الباقى بل لأننى أعلنت احتجاجى على هذه الضجة الفارغة دون لزوم ، واضفت بكل صفاقة : حد قال لك هات باقى ؟ ثم ان الخيبة حلت بى ففتحت العلبة ورايتنى أنفحه ســــيجارة ثمنها أربعة قروش أى ما يعادل ثمانية أرغفـــة ، فنزعهـــا بجـلافة وغلظة ووضعها في أذنه دون اهتمام ، فكرهته هو الآخر . لكنه سارع فأشعل لى سيجارتى بولاعة رونسون من أحـدث طراز ، فناصت ولاعتى في كفى ثم توارت في جيبى وقد قررت الا اظهرها، وقال الولد الذى نصفه جرسون ونصفه بلطجى :

ـ انت فين دلوقت يابيه ؟

تمعنته جيدا ، شكله ليس غريبا ، قلت له :

ـ الله .. انت تعرفنى ؟

ابتسم :

ـ انت مش عارفنى والا ايه ؟

ثم جلس أمامي دون تكليف . أخذت أغلفة الزمن تنجاب عن وجهه شيئا فشيئا . كان بائعا سريحا فى القطار الذى تعودنا أن نركبه الى المدينة حيث نتعلم ، كنا أفندية صغار يعاملنا الجميع باحترام ويساعدوننا فى النزول وفى الركوب ، ويتوسطون لدى الكمسارى فى فض مشاكلنا ! ويدعون لنا بالتوفيق حتى يكون فى البلد ناس متنورين ، وكان هذا صغيرا مثلنا ينظر الينا بانبهار ويقرب منا سبت الحلوى والسودانى قائلا : « ربنا ينجحك يابيه تذوق الحلاوة دى » .. فنشترى منه وكان يكبر معنا حتى لكأنه واحد من « شلتنا » ومن جيلنا ، جزء هو لا يتجزأ من عالم القطار وعالم المدنية التى أحببناها ، وظل يحمل السبت الى وقت قريب جدا حتى بعد أن تخرجنا وصرنا مهندسين واطباء ومدرسين وكتبة فى المحاكم والشركات .

ـ ازيك يا « زوزو » ..

هكذا صحت اذ تذكرت اسمه فجأة .

ـ عليك نور .. لاصاحى برضه ..

قال هذا وهو يسحب السيجارة من اذنه ويشعلها ثم سألنى :

ـ اتوظفت فين ؟

قلت له ـ كذبا ـ اننى تخرجت من الجامعة وعينت مهندسا زراعيا ، والواقع اننى كنت موظفا بالجمعية التعـــاونية بدبلوم التجارة المتوسطة قال : ما شاء الله .. ما شاء الله .. قلت : وانت ؟ قال : مستورة والحمد لله .. ربنا تاب علينا من الشقا .. القهوة دى بتاعتي . نظرت حولى .. كراسى وترابيزات أنيقة مثل مقاهى القاهرة واحسن ، جدران كلها بالموزايكو ، أكواب وصوانى جديدة، نصبة كبـــيرة عليهـــا صفوف من الشيشة والبورى والاكواب والفناجين . قدرت المكان كله ـ لا أدرى لماذا ـ باثنى عشر ألفا من أهيف القد ممشوق القوام قلت له : هل سافرت الى احدى الدول العربية ؟ .. قال : لا .. ولماذا يهين الانسان نفسه ؟ . قلت : فمن أين لك هذا ؟ .. وعزمت عليه بسيجارة أخرى مادامت خربانة خربانة ، فأزاحها وقدم لى علبته المارل بورو قائلا : من باب الله .. كله على الله .. ثم قال : هل انت مسافر الى البلد ؟ .

قلت : نعم قال : ليتك جئت مبكرا قليلا كنت بعثت الولد يوصلك . قلت : ولد من ؟! قال : سائق عربتي .. فعندي – فضلة خيرك – عربة أجرة على قد حلها ترمح طول النهار هنا وهناك . ثم أشار الى المدعو « حوده » فجاء ، فقال له اذهب واطرق شباك الأسطى فرج وقول له المعلم بيقول لك فيه توصيله مخصوص . انطلق « حوده » وترك أمامي نظرة كأنها تفتتح حسابا ما . غاص قلبي في ركبتي لدى سماعي كلمة مخصوص ، وكدت أسأله صراحة كم سيكون الأجر ، لكنني أمسكت . وبعد ثلاث سجائر جاء « حوده » ومعه الأسطى « فرج » . دعكت عيني وخيل لي انني في حلم . أمعقول أن يكون الأسطى « فرج » هو نفس الاسطى « فرج » الذي أعرفه ؟ . حين تقدم مني تأكدت أنه هو ، ثم انه أقبل نحوي مبتسما : « ازيك يابيه .. والله زمان » ثم جلس .

سلمت عليه وطلبت له قهوة . الأسطى « فرج » جزء من طفولتي . كان سائقا للأنفار في الوسية أو بمعنى أصح صبيا لأحد المقاولين يقوم بجمع الأنفار من بعض البلاد والعزب ، فلما قامت الثورة عمل « خوليا » في الاصلاح الزراعي ، وآخر أخباره عندي أنه اشتغل سائق جرار في الجمعية الزراعية ، فهل تراه سيوصلني بجرار الجمعية ؟ . قال أنه لولا معزتي عنده لما صحا من النوم الآن . قلت له : اذن فهيا بنا . قال : الولد زمانه جاي. قلت : ولد من ؟ . قال : ابني ! .. قلت : هل تزوجت ياعم فرج؟ قال : أنه تزوج ثلاث مرات ، وانه أنجب ولدا قبل النكسة بثلاث أعوام . ثم أن الولد جاء . طفل في الثانية عشرة من عمره ، رفيع صغير كالنحلة الزعزوع . قال له أبوه : سلم يا ولد على عمك سراج . فسلم الولد علي . قال له أبوه : حتوصل سعادة البيه البلد .. بلدنا يعني . قال الولد بظرف : هو البيه من « كوم الديابه » ؟ . قلت : نعم . وقال أبوه : ما تعرفش خالك رضوان الصباغ ؟ . اهو ابو سعادة البيه يبقى متجوز بنت خالته . فسلم الولد على مرة أخرى وقال : تفضل يابيه . فنهضت واقفا . وقلت للأسطى « فرج » ، « ستأخذ مني كام » . ابتسم وقال : « مفيش فرق يابيه اللي تدفعه » . قلت : « معلهش برضه أحب

اعرف » . قال : « الدنيا ليل » و « السكة زى ما انت عارف كلها لبط » .

قلت : « البركة فيك » . قال : « خلاص ادفع خمسة جنيه » .

تهاويت جالسا . نظر الى فى استنكار : « ايه كتير ؟ » . قلت : جدا . قال : « خلى علينا » .. وصله ياد وتعالى . قال : « زوزو » : « شوية عليك وشوية عليه .. ادفع اربعة جنيه يابيه » . قلت : « مستحيل .. هذا مبلغ خرافى » . قال الأسطى فرج : « أمال عاوز تدفع كام ؟ » . وكان ودودا حقا . فلم أجب ، لأننى اعرف بالضبط ماذا على أن أدفعه . وقال « زوزو » : « البيه مننا وعلينا يا اسطى فرج » . وقال الأسطى فرج : « دانا اللى مربيه .. دانا .. اسأله يقولك » . وكان يريد أن يقول اننى كنت ذات يوم من بين الأنفار الذين يسوقهم للعمل فى الوسية لكنه تحرج . واحسست بجروح تنزف داخلى . فقلت وأنا اتشعلق بأعلى درجات البكوية : « آخر كلام حاديلك ثلاثة جنيه » . وكنت فى أعماقى أتمنى أن يرفض ، لكنه قال : « هات تلاتة ونص علشان خاطر الذكريات القديمة بس » . قلت : لا . قال : « زوزو » : « عندى أنا » . قلت : لا . قال الولد : « خلاص عندى أنا » . قال فرج : خلاص انصرفوا مع بعض .. تتنازل عن بقشيشك ؟ قال الولد : « رقبتى » فدفعت ثلاثة جنيهات وجررت ساقى بصعوبة شديد الى حيث تقف العربة .

عربة هيلمان عمرها فوق الأربعين . فتحت بابها بكل قوتى ، وجلست بجوار الولد مكتئب المزاج ضائق الصدر ، وعبثا حاولت اغلاق الباب الذى صدعنى من الخبط والرزع دون جدوى ، فكان على أن أظل مسندا اياه بذراعى من فتحة الشباك . وكنت أخاف أن يسقط الولد بها فى أى ترعة أو يخرم فى اى حقل من فرط الظلام ، لكنه كان يقودها نصف واقف ونصف جالس كالجن المصور . وقلت له : من أين جئتم بهذه العربة ؟ . قال انها كانت وجه السعد ، استلقطها أبوه من على الطريق جثة هامدة بخمسين جنيها ، ثم لفق لها موتورا وخرط لها قطع غيار من صنع

يديه ، وشغلها على خط المركز ـ القوى .. فجاءت برزق وفـير وابتنى أبوه عمارة من ثلاثة أدوار وقفت عليه فى النهاية ببلاش ، اذ جمع تكاليفها وثمن أرضها من الخلوات . قلت : « ما شاء الله .. وزوز ما هى أخباره ؟ » فابتسم الولد فى خبث عجوز وقال انه ما شاء الله ظل يجاهد حتى استخرج رخصـة مطعم وفـول وطعمية فى المركز ، وسار كل شهر يأخذ تموينا من الزيت والفول، يبيعه ويذهب المشترى بنفسه ليتسلمه من الحكومة ـ أى أن « زوزو » يتاجر بلا رأسمال ، بل هو يقبض اثمانا عالية وهـو جالس فى داره .. فجمع راســـمالا كبيرا افتتح به هذه المقهى واشترى عربة أجرة .. ولا تزال رخصة المطعـم تتسلم التموين بانتظام رغم ان هذا المطعم لم يكن له وجود فى يوم من الأيام !

ظننت الولد يهذى بأى كلام ، قلت له كيف يحدث هذا ، انك يا بنى قد لا تعرف ان هنـــاك مفتشين صحة ومفتشين تموين ومباحث وما الى ذلك مما لا يستطيع رجل كهذا أن يفلت منهم . وهنا انفجر الولد ضاحكا بصفاء يشوبه قدر قليل من الخبث ، وكان من حين الى حين ينظر الى نظرة سريعة خاطفة ليرى ان كنت أمزح بهذا الكلام أو أقصد الجد . ولاحظت عدم التصديق الشديد فى وجه الولد وفى ضحكته المستمرة ونظراته المستنكرة . فقلت له اننى لا أمزح ، فقال بكل بساطة : « تبقى انت حضرتك يا سعادة البيه .. لمؤاخذة يعنى .. مش عايش فى الدنيا ! » .

استغربت من جرأة الولد ، وتعشمت خيرا فى الأجيال القادمة ، فها هو ذا الطفل يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويعرف أيضا كيف ان الأكل من الكتف ، ويعرف أيضا كيف أن الأكل من الكتف فن يجيده أذكياء المجتمع وأن الاغبياء فقط والمتخلفين عقليا هم الذين يخترعون كلاما كثيرا عن الشرف والأخلاق يبررون به عجزهم عن الكسب والنجاح أمام أولادهم ! .. قال الولد :

ـ مفتشين ايه يا بيه كل سنة وانت طيب !

ـ يعنى ايه‌يا شاطر ؟ تقصد ايه يعنى !

ـ مفيش حد ماهش عايز فلوس يتمتع بها ويربى ولاده ..

ـ أيوه بس فيه اخلاق وقوانين وشرف .. والا كل واحد يعمل اللى هو عايزه والدنيا تبوظ ..

ـ لمؤاخذه يا بيه .. الدنيا باظت يوم ما سمعنا الكلام ده .. بقى الشرف والأخلاق انى انا اقعد اتفرج على الكسببة وأنا مش لاقى آكل ؟! .. تعرف يا بيه .. انا حاقول لك على حاجة بسيطة .. هى الست اللى بتبيع جسمها عشان تأكل وتسكن وتلبس .. بنسميها ايه .. شريفة ولا ماهش شريفة ؟

ـ طبعا ما هش شريفة !

ـ طيب .. يبقى الشرف يعنى تجوع وتتعرى وتتطرد من بيتك .

ـ انت فى سنة كام يا شاطر ؟

ـ انا فى الاعدادية ومش ناوى أكمل

ـ ليه ؟

ـ وأكمل ليه ؟

ـ عشان يبقى معاك شهادة !

ـ أعمل بيها ايه ؟

ـ تتوظف بيها .

ـ وأتوظف ليه .. انا مجنون .. ده ماهية الموظف دى انا أكسبها فى يوم ..

ـ عشان تبقى متعلم ومتنور وفاهم الدنيا .

ـ أصل يابيه اتضحت حاجة .. ان الواحد عمره ما يتعلم ويتنور ويفهم الدنيا من الكتب .. الناس طول عمرها بتتعرى وتتعلم وتصرف دم قلبها .. وبعدين يطلعوا من المدارس والكليات يلاقوا الدنيا حاجة ثانية خالص غير اللى تعلموه ..

ـ طيب ما فيه ناس كتير اتعلمت ونجحت فى حياتها .

ـ انت بالك هما نجحوا عشان عملوا باللى تعلموه ! . أبدا .. دول من الأول فاهمين كل حاجة .. واتعلموا بس عشان يتباهوا بالشهادة .. انما يركنوا اللى تعلموه ده على جنب .. ويشتغلوا باللى فى دماغهم هما .. بالفهلوة اللى تعلموها فى السوق وفى بيتهم .. أمال يابيه الحياة أصلها مش لعبة .. انا بسوق العربية

دى وسنى تسع سنين .. وكنت بسوقها وانا راقف واديك شايف السكة اللى باسوق فيها شكلها ايه ..

ـ بس الفهلوة دى نصب .. واللى يعيش كـده بالفهلوة يبقى نصاب وحرامى وسفاح « نظرة جانبية قلد فيها فريد شوقى » :

ـ يا ريه الدنيا كلها مبنية على كده .. نصب فى نصب .. ابويا لما اتجوز امى نصب عليها وفهمها أنه ولد مفيش منه وكسيب رهو كان لسه يا دوب نفر فى الوسية .. ولما دخل عليها ولقت أنه ع الحميد المجيد ما بقتش ترضى له .. نصب عليها علشـان يخلفنى .. قعد يقول لها دانا بحبك وانت حياتى دانا ح أعمل لك وأسوى .. ومن يوم أنا ماجيت لحد النهاردة وهو بينصب على .. يفهمنى أنه بيفهم أكثر منى عشان اخاف منه واحترمه قـدام الناس .. ويفهمنى انى أنا راجل عشان ابقى أريحه فى الشغل ..

« نظرة جانبية اخرى قلد فيها شكرى سرحان » :

ـ ومفيش حاجة تغيظ بقى غير النصب بتاع المتعلمين واللفندية .. تروح للدكتور بالست بتاعتك وهى حامل يديها نصايح مالهاش اول ولا آخر كل يوم نصيحة .. تأخد له الطفـــل المولود يديلك عشرميت نصيحة .. والراديو والتليفزيون كل حاجة منها لهـا عشرين الف صوت كلهم بيقولوا لا احنا اللى نفسل أكثر بياضا .. والأصوات اللى بتقول الكلام ده عن الحاجة دى هى نفسها اللى تقول نفس الكلام ده على الحاجة الثانية .. وفى حالة ثانية تلاقى دكتور ولا مهندس ولا واحد من الاســانيد يقول لك لا ما تعملش كدا وما تصدقش الـكلام الفلانى .. مش كل ده نصب يا سعادة البيه ؟ .. تعالى بقى على الجمـــاعة اللى بيرشحوا نفسهم فى الانتخابات .. كل واحد منهم يلف ع البيوت ويقول حاعمل وأسوى وحاجيب للبلد وحاوظف وحاشق مصارف وادخل الكهرباء وارصف واجيب ميه والآخر كلهم بيجيبوا جاز .. زى البابور لمـــا ينطفى ويبرد يروح جايب جاز .. الله .. هو احنا يا سعادة البيه عمرنا شفنا المطربين يغنوا ليل نهـــار لخضر العطار .. ايه بقى خضر العطار ده ؟ .. ده لو بيبيع ماء الحيـاة مجـانا .. يعنى لو كان المسيح عليه السلام أو سيدنا محمد عليه أفضل الصـــلاة وأتم

السلام ماكانش يتغنى له كده .. تعرف .. النـــــاس عندنا فى الأفراح بيجيبوا فرقة فيها مطرب أى كلام .. ويغنى برضه خضر العطار .. زى الراديو .. طبعا مش حتقـدر تقول له ماتغنيش كده ؟ حيقولك أنت أحسن من الراديو ! .. ده لازم يكون الملحن اللى لحن اللحن ده واخد أجرته عزبه سبعتلاف فدان ، ويكون خضر العطـار قارون اللى بيقولوا عليــــه فى الحواديت .. يابيه صـــلوا ع النبى يابيه وما توجعش دماغك .. اللى تعرف ديته اقتله ..

وكنا قد وصلنا الى مدخل البلدة حين تمهل الولد فى القيادة فيما يقول :

ــ حمد الله على السلامة يابيه ..

ــ الله يسلمك ..

ووقف وقال ان دخول البلدة لم يكن ضمن الاتفاق ، ذلك انهم يتفقون دائما على الوقوف عند هذا الكوبرى ، لأن شوارع البلدة مليئة بالمطبات والأوحال ثم انها ضيقة كثيرة المنحنيات .. قلت له ففيم المخصوص اذن ؟ قال المخصوص يعنى أن أطلع بك وحدك ولا أتوقف لأحد ولا يضايقك أحد . وكنت أرى أن دخول البلدة امر وارد فى ذهنه وفى الاتفاق ولكنه يساوم لاضافة نقود جديدة . غير أننى لم أجد فى نفسى طاقة لأى شىء . ففتحت الباب ونزلت .

وكان الليل قد بلغ الذروة حين اخذت أجوس بين الحوارى الضيقة التى ازدانت بالفوانيس الكهربائية ، تلقى على الارض ضوءا شاحبا يعمق الليل اكثر مما يؤنسه . ورغم أن جغرافية الحوارى كانت تؤكد لى انها جزء من بلدتنا الا أن ثمة شيئا ما كان ينفى هذا التأكيد ، لعله انعدام تلك الرائحة القروية الجيدة ، رائحة الروث والألبان والسمن المقدوح ، رائحة الخبز الطازج والتقلية ، كان يحل محلها رائحة البنزين المحترق ، وكانت ثمة عربات فارهة تقف امام البيوت المبنية بالطوب الأحمر ! . وكان بيتنا قد غرق فى صمت مألوف جعلنى اطرق شباكه فى هدوء يتناسب معه ، فلمـا طال الطرق شددت من وقـع قبضتى . وفتحت لى زوجة اخى ولم يكن يبدو عليها النوم ، ومن داخل القاعة البعيدة كانت تلمع

اضواء سماوية فى خفقات سريعـــة متتالية ، فعرفت ان بالبيت جهاز تليفزيون ، وأنهم ساهرون حوله ، عجبت طبعا كيف تسنى لهم هذا ، لكننى سرعان ما تذكرت أن لى شقيقا صغيرا كان قد سافر الى السعودية مساعدا لأحد عمال البناء .

ادخلت الى الدار بحفاوة شديدة لا تتناسب مطلقـا مع حجم محتواى المادى ، وهبت الأسرة كلها فى سعادة واشراقة ، ونزلت امى عن السرير وعانقتنى . كان كل اخوتى قد حضروا .. النجار والسمكرى والنساج والخيـاط والبناء ، وكانت قـد انتشرت فى القاعة أشياء غريبة وشـــاذة : روب دى شامبر .. كاميرا .. جرامفون .. اسطوانات .. كاسيتات .. بنطلونات حريمى .. وثمة حقائب كبيرة جدا لم يكن يخطر ببالى أن يكون عندى مثلها ، كانت كلها محشوة بالهدايا والأشياء المشتراه من هنا وهناك . وكان من الواضح ان امى قد اشبعت تماما ، وأنه لم يكن ينقصها الا مجىء ابنها الموظف ، اى المحترم الوحيد فى العـائلة كما قد توارثوا ، الأفندى الوحيد الذى تعلم على حساب الباقين والذى من المفروض انه كبير العائلة .

رميت حقيبتى الحقيرة ، جلست بينهم أحاول أن أكـون سعيدا بأى شكل ، ولا أدرى كيف تسرب خبر حضورى فى هذا المساء ، اذ انفتح الباب ولم ينغلق بعـدها حتى الصباح من كثرة الداخلين والخــارجين ، وكان اخوتى الأصغر منى قد راحوا يتبارون فى توزيع الأوراق النقدية الجديدة على الاطفال ، ويبعثون فى شراء أشياء ولا يسألون عن الباقى ، الامر الذى احالنى وسطهم الى عود من القش الجاف ، الذى ان عصرته نزت منه الكآبة السوداء . وكان الوقت كلمـــا أمعن فى الضحى والوضوح تعريت ، وحتى قدوم الصباح كنت أتذرع بطلوع النهار وقدوم الاطفال المهيمن فى نطاق الاسرة لأعطيهم « عيديتهم » ، ولكن الصباح جاء ومن بعـده الضحى ، وصرف الأطفال أضعاف أضعاف ما بقى فى جيبى ، وكان لابد أن أنصرف ، ورحت أبحث عن أسباب قوية تبرر رحيلى فى نفس اليوم — يوم العيد . وفتحت حقيبتى وأخرجت على استحياء شديد الطرحة الحبر ملفــوفة فى ورقة جرنان ، وقدمتها الى

امى ، ففكتها مبتسمة ، ومبتسمة أيضا راحت تشوح بها فى مرح مرددة : يو ... و .. و .. انت لسه فاكر .. ان شــاء الله ما أشتهيك » . لكن لهجتها لم يكن فيها أى حماس ، أى فرح ، ثم القيتها وضعتها بجوارها فى عدم اهتمام ، وقالت .. لتفرحنى أو لتشقيني لست أدرى :

ـ هاتى يا بت الهدايا اللى اخواتك جايبينها لما أفرجه .

وجاءت اختى الصغيرة بعشرات الاشياء التى تتضاءل أمامهـــا هديتى الى الصفر . تفرجت بلا حمـــاس ، ولم أسأل عن أشياء كثيرة كانت تستحق السؤال . ثم ان الجميع خرجوا للتجول فى القرية وزيارة المقابر ما عداى ، وعادوا ثم خرجوا! ثم عادوا مرات عديدة يصحبهم رجال وأطفال ، وكنت خلال ذلك مشتت الفكر يشغلنى امر هام : كيف أصحوا مبكرا لابدأ العودة فى رحلة عجفاء تخلو من كل رفاهية ، فما بقى معى بالكاد ـ يوصلنى الى بيتى متشعبطا . وكنت ألاحظ أن الأطفـــال يشيحون عنى فى تجاهل مهذب ، ولا يستجيبون لمداعباتى !

السعد الذى طرق ابواب اليتيمات



السعد الذى طرق أبواب اليتيمات

حين نزل من محطة القطار لم يعرف بالضبط ما اسم هـذه المحطة بل لم يعرف بالضبط لماذا ركب هذا القطار بالذات ، فقد سأل وهو فى العاصمة عن خط الأرياف فدله أولاد الحلال الى هذا القطار ، فركبه ، وعرف أن مظهره هو الذى جعلهم يوجهونه نحو القطار بدلا من عربات الأجرة المرفهة ، ولقد ساعده كل من سأله سؤالا وحمل عنه بعض أحماله ، وقد رزقه الله بمن رافقه الى المحطة وقطع له التذكرة واسلمه لمن يكون مسـئولا عنه فى القطار ، ذلك ان « شلاده بخشوان » رجل ضرير مغلق العينين تماما ، جارم الأطراف والملامح عملاق ، يرتدى جلبابا بلديا حائل اللون يبرز من فتحته صديرى وفى القدمين بلفة بيضاء .

فلما انحشر فى القطـــار المزدحم بكتل اللحم البشرية وجد ــ ويا للعجب ــ من يتنازل له عن كرسيه ، ومن يتولى ايجـــاد مكان لحقـــائبه على الرف المستطيل ، بل ومن تطوع بحراستها والتتميم عليها كلما وقف القطار على محطة . ومنذ جلس لم يكلف نفسه عناء السؤال عن شىء ، حتى حينما سأله أحدهم :

ــ على فين العزم يا حاج ؟ .. قال بسرعة : آخر الخط ان شاء الله . وقد أجاب بناء على التذكرة التى اقتطعها والتى أراد لها أن تكون مفتوحة وعليه أن ينزل فى المحطة التى تعجبـه . وظل يراقب حركة القطار بدقة شديدة وانتباه عظيم لا يتوفر الا للعميان أمثاله . فكان يدرك بالملاحظة ان مجتمع القطار يتغير من محطـة الى اخرى . فجأة يسود مجتمع نصف مدنى ، وفجأة ينقرض بعد محطتين ، ليسود مجتمع ريفى قح ، يظل يمعن فى قحته فكأن القطار يدخل شيئا فشيئا فى بطن لهجات تشبه أن تكون قبليه من فرط تميزها الشديد . فما أن وصل القطار آخر محطاته حتى بزع فى أذن « شلاده » من يعرض عليه أن يتفضل معـه . لحظتهـا

لم يكن قد بقى فى القطار احدا سوى هذا الفلاح الذى وجد فى القطار رجلا غريبا ، فلابد ان يكون قاصدا بلدتهم ، ولابد أن يكون قريبا لأحد من أهله ، فعليه اذن أن يقوم بالواجب تجاهه .

مالت رأس شلاده نحو مصدر الصوت :

ـ احنا فين دلوقت يا ابنى ؟

ـ احنا فى البشلاوة المحطة .

ـ أمال بشلاوة البـــلد تبقى فين ؟

ـ مافتناها ورانا .. اللى عاوز ينزل بشلاوة البلد ينزل فى المحطة اللى قبلها احسن له .. عشان يمشى خمسة كيلو بس !

ابتسم الوجه الأسمر ذو الشعر الكثيف :

ـ أمال اللى ينزل بشلاوة المحطة بيروح فين ؟

ـ يروح البريمة .. انت حضرتك رايح فين ؟

ـ أنا كده بلاد الله خلق الله .

ـ آه .. بالجودة .

هكذا ختم الفلاح وقد ترسب فى نفسه احساس بالخـوف من التورط فى ضيافة قد تعطل مصالحه .. ومع ذلك وهو يهم بالنزول قال :

ـ طب ما تتفضل معانا .

ـ يزيد فضلك .. نزل معايا الشنطة ؟

أعفاه الفلاح من حمل أى شىء ، فشد حقيبتين بحزام جلدى ومال فحشر كتفه بينهما ، ثم حمل الثالثة بيمناه وباليسرى سحب « شلاده بخشوان » ونزل به من القطار ، ثم استدار يحجل بخطوة الثقيل نحو الطريق الزراعى .

العدد القانونى لركاب العربة خمسة ركاب ، ولكن « حمدى » السائق يوسقها بعشرة على الأقل ، وهى عربة فـورد موديل ١٩٣٨ ـ اشتراها « حمدى » من وكالة البلح ولفقهـــا ورممها فكلفته ثلاثمائة جنيه هى كل مدخراته منذ توظف تمورجيا بالوحـــدة العلاجية سنة ١٩٥٦ وصار يزوغ من الوحدة بعد ساعة أو ساعتين بالكثير ليجرى على السكة رائحا غاديا من المحطة الى البلد يعمل له فى اليوم عشر أدوار بالراحة . النفر بعشرة قروش وتحسب

الحقيبة نفرا اذا تجاوزت يد صاحبها . ولا حديث لركابه طوال الطريق الا هو نفسه ، كثرت عجوله وابقاره لدى الفلاحين ، كيف ابتنى بيتا « حديثا » فى مواجهة الوحدة وسط الحقول . كيف أنه ـ وهو الذى لا يذهب الى العمل ولا يعمل ـ يرفع القضايا ضد الوحدة ويوكل المحامين يطالبون له بحقه فى الترقيات والدرجات والعلاوات . ويكسبها بالفعل .

يضحك حمدى بصوت مسرسع كاشفا عن اسنانه الصفراء الكبيرة ، يزغد من بجواره كأنما ليستحثه على مزيد من الثرثرة ، ويسوق العربة وهو جالس على ما لا يزيد عن شبر ، اذ الكرسى الأمامى فى هذه العربة الفورد ذات الأصول النبيلة قد تحول الى كنبة استنبولى يحتلها ثلاثة أو أربعة ركاب بجوار السائق ، اما الكنبة الخلفية فيحتلها خمسة آخرون ، يجلس فوق ركبهم ثلاثة أو أربعة ، والعربة تجار وتزمر وتزعق ، وتنشال وتنحط وهم لا يبالون .

ـ قف ياسطى .

قالها « شلاده » فى لهجة حاسمة ، وكانت العربة لحظتها قد أخذت الرابع وراحت تعمل على دهك الركاب فى بعضهم وتحويلهم الى عجينة واحدة ، والسكة عجفاء مضلعة ..

ـ عاوز ايه يا حاج .

هكذا رد حمدى فى أدب شديد كما تقضى التقاليد بمخاطبة الغرباء .

ـ ما دام عندكم نظام العربيات ، يبقى عندكم نظام المخصوص .

ـ أيوه عندنا .. عندنا كل حاجة ..

ـ مش ممكن تطلع بى أنا لوحدى مخصوص ؟

ـ ممكن قوى .. انزلوا يا أسيادنا .. بس حناخد منك ثلاثة جنيه يا حاج ..

ـ ما يهمش ..

ـ خلاص .. انزلوا يا جماعة .. ربع ساعة وحارجع لكم .

توقفت العربة وحدثت حركة سريعة أحس « شلاده » خلالها ان الدنيا راقت بعض الشىء ، ولما سأل عن ابن الحلال الذى كان

يرافقه رد عليـــــه قائلا انه لا يصح ان يتركه وحــــده . ورغم أن شلادة لا يملك عينين الا انه تأكد ان الركاب كلهم لم ينزلوا ؛ وأن ثلاثة فقط هم الذين نزلوا ، ولكنه قرر بينه وبين نفسه أن يدفع الجنيهات الثلاثة وامره الى الله .

منذ تلك اللحظة بدأ حمدى ينشغل بأمر « شلادة » ، فمنـــذ برهة كان يتصور انه رجل « أى كلام » ، مجرد ضرير يمشى بصحبة أهل البلدة ومعه ثلاثة حقائب كبار ، أما أن يتمخض عن رجل كبير هكذا ، يدفع ثلاثة جنيهات فى توصيلة كهذه ، ودون مساومة فانه لأمر لا ينبغى أن يفـــوت على حمـــدى . ولـــذلك فـــانه . استعاد حديثه وكف عن الهزار ، وبلهجة رزينة قال : « أمال الحاج منين ؟ » .

فقال « شلادة » بلهجة يفهم منها انه من شخصيته ، ان وطنـه الحقيقى هو شخصيته .

ــ مش مهم .. بلاد الله خلق الله .

ــ أيوه لكن البلد الأصلية ايه ؟ ..

ــ من دولة عربية جنبكم .. بينها وبينكم فركة كعب .

فنظر الفلاح الى كعبه فوجده ينبىء عن مشاء كبير والى ملابسه الكالحة فوجده لا يزيد عن بائع سريح ، فقال كأنه يتبرأ منه أمام أهل بلده :

ــ تصوروا انه نازل بلدنا وهو ما يعرفش أى حد فيها ؟!

نشط خيال « حمدى » :

ــ تايه ولا ايه ؟

ــ لا يا ابنى .. أنا تاجر .. معايا بضاعة بأبيعها .

واعتقل « حمدى » خياله قليلا :

ــ ربنا معاك .

لكنه لم يستطع التغافل عن الحقائب الثلاث وما يمكن أن تحويه من بضائع ، فحمدى يحب الصوف والكشمير ، ويحب الفـــانلات أم رقبة والجـــواكت الشمواه ، ويحب الساعات المعلن عنها فى الشرق الأوسط ، ويحب أن يكون عنده جهاز للتسجيل يتباهى به ويخادع الأصدقاء و « يسجل » لهم ، ويحب قبل كل ذلك وبعد

كل ذلك أن يصطاد هذه الاشياء قبل ان يصطادها غيره ..

ــ ايه البضاعة اللى معاك يا حاج ؟

ــ كل طلباتك .. بس أما تنزل وافرجك .

وظل حمدى طول الطريق صامتا ، فلما وصل الى الجمعية الزراعية حيث يتعين عليه الوقوف للعودة ، اذا به يواصل السير الى داخل البلد . وعجب من كانوا معه وكشفوه بتعليقاتهم ، وكان حمدى قد نسى أنه خدع الأعمى واوهمه بأن التوصيلة «مخصوص» وها هى ذى ليست كذلك ..

ــ هما بيطلعوا منين ياخويه ؟

هكذا علق الأعمى ، فانفجرت الصدور ضاحكة ، واضطر حمدى الى مداراة حرجه بالضـــحك ، لكنه سرعان ما وثب على الموقف واعتلاه :

ــ على العموم خلى عنك .. التوصيلة دى على حسابى ..

وكان فى صوته نبرة جادة صادقة .

ــ تشكر يا اسطى ..

ــ اسمع .. الغريب مكروم لاجل النبى .. وانت النهاردة ضيفى .

ــ الله يكرمك ما نتحرمش .

ودون أن ينتظر رد الأعمى انطلق نحو بيته ، وحين وقف نزل من السيارة وأشار للركاب قائلا : طب مع السلامة انتو .. اتفضل يا حاج . فنزل الأعمى وســـحبه حمدى الى الداخل ، وأدخل السيارة الى حوش المنزل وأغلق بابه .

دبت الحياة فى بيت حمدى على غير العادة ، هو الذى انعزل عن الناس كلهم منذ أن صار ذا مال ، واغلق على نفسه أبوابه كلها درءا للحسد ، ذلك ان اللقمة التى تفتش لا تؤكل ، آثر أن يعيش مع أمه العجوز فى هذا البيت الكبير « وطرمخ » على مسألة الزواج هذه خوفا من أن يجىء بواحدة ليست من صلبه تشاركه فى ماله ومتاعه ، فأى امرأة كائنة من كانت فى نظره لا يحق لها أن تجىء ــ على الجاهز ــ وتصبح شريكة لمثله فى خيره ، فلربما انفصل عنها

بسبب من الاسباب وما أكثرها ويخسر بذلك شيئا مما ذاح فى جمعه وتكوينه .

وظل يخطب ود الزواج من بعيد لبعيد متعشما أن يخلق الله له واحدة خاصة بمواصفات خاصة ، وظل بيته يطالعك فى مدخل البلد انيقا تحوطه حديقة ويصدح فيه عبد الباسط ليل نهار .

غير ان هذا البيت سرعان ما تحول الى سوق ، تؤمه العرائس والعرسان ، ويؤمه التجار والزبائن والسماسرة ، ففى ظرف ايام قليلة كان صيته قد طبق الآفاق وصار من المألوف أن تجد الركائب مربوطة فى سور البيت تنتظر أصحابها الذين جاءوا من العزب المجاورة يتفرجون او ينتقدون أو يسفهون من قيمه البضائع ولكنهم جميعا فى النهاية يشترون ويدفعون .

انتشرت على اجساد الولدان الصغار فانلات ملونة وبنطلونات محزقة او مترهلة ، الأمر الذى أحدث ما يشبه الانقلاب فى البلد، فهذه الملبوسات والمقتنيات قاصرة على الذين لهم اقارب من المعارين للعمل فى البلاد العربية ، وهؤلاء كانوا يشكلون طبقة متميزة . أما أولئك الذين لم يكن لهم أقارب فانهم فجأة صـــــاروا وكأنهم هم انفسهم من العاملين فى البلاد العربية ، فها هى ذى الملبوسات والمقتنيات قد جاءت لحدهم وبنفس الاسعار تقريبا ان لم يكن أقل بكثير مما يزعم القادمون بالهدايا من هناك . وفى القرية لا توجد وجوه للانفاق أكثر من الأكل والملبس والعلاج والكيوف المتاحة ، وما بقى من هذه الوجوه ــ وهو قليل ــ مدخر لليوم الأسود الذى يعمل له الفلاحون ألف حساب . ولكن لم تكد تمر أيام قليلة حتى كان هذا الأعمى قد حصل على كل المدخرات ، وخلال ذلك كان « حمدى » هو الذى يساوم ويبيع ويقبض ويعطى للرجل ما يقبضه ، ويقول أهل البلد أن « حمدى » قد استنفع من ورائه كثيرا ، ويقول آخرون انه حصل فقط على عمولة ، ويقول المقربون منه أن مكسبه كله لم يتجاوز حصوله على جهاز تسجيل وقطعتين من الصوف له وقطعة من الديولين لأمه .

وفى اللحظة التى بدأت وفود المشترين تتضاعف كانت البضاعة قد نفدت تماما ، وكان الأعمى قد عرف أنواعا جديدة من المطلوبات

التى يلح اهل القرية فى طلبها ، بل وعرف اسماء لأصناف لم يكن قد سمع بها مطلقا ، وتعجب كيف يمكن أن يصل صيت هذه الاشياء الى مثل هذه القرى البعيدة عن كل عمران . لقد جاء من يسأله مثلا عن اقراص « الجفرين » التى تعطى الانسان قوة الحصان . ومن يسأله عن ابر ماكينة الخياطة سنجر ، ومن يسأله عن الجوخ والكشمير ، والملاءات والطرح البيضاء . والخلاط والمفرمة وماكينة الحلاقة بالكهرباء ، والطاسة التى التى لا يلتصق بها الطعام ، وعرف كذلك طائفة من الأشياء الغريبة ، فهذه سيدة عجوز تسأله عن قماش يسمى (الحبر) ـ بفتح الحاء والباء ـ وأخرى تسأله عن شال من القطيفة وثالثة تسأله عن المسك والجاوة . وجاء فى السر ناس من علية القوم تسبقهم مقدمات دبلوماسية يسألونه عن أفلام من التى يتفرج عليها الامراء فى بيوتهم الخاصة . وجاء شبان من طلبة المدارس الثانوية يسألون عن مجلات السكس . كذلك عرف طائفة أخرى من الاشياء الاكثر غرابة التى تتدرج كلها تحت بند « الأصلى » فمنها أشياء معلومة بل ومتوفرة فى كل مكان ولكنها ليست الصنف الأصلى انما هى المقلد !!

حينئذ نام الأعمى على ظهره فوق سرير حمدى الذى تنازل له عنه ، وسرح بأفكاره الى بعيد . ان القرية ، اذن ، تريد سوقا كاملا يحفل بكل هذه الطلبات ، انها تعامله ليس باعتباره بائعا سريحا لا فرق بينه وبين أى من البائعين المنتشرين هنا وهناك من قديم الأزل ، بل تعامله باعتباره بلدا عربيا بحاله انتقل اليهم ومطلوب منه أن يلبى كل احتياجاتهم . لقد أخطأ حين زعم أنه من ليبيا الشقيقة وانه أحد تجارها فعاملوه على انه ليبيا ، ثم حاول أن يطرد عن ذهنه شبح التفكير خوفا من أن يرى « حمدى » أفكاره فتتكشف حقيقته ، لكن سؤالا ملحا كان يطرق دماغه : ما الذى يحدث لو علم كل هؤلاء انه مصرى مثلهم ، انه محروم مثلهم من كل ما يحتاجون اليه وانه مثلهم أيضا يطلب ما ليس فى حاجة اليه وهو لا يعرف السبب فى ذلك ، الا يعرف هؤلاء الاغرار المساكين أن هذه الاشياء التى باعها لهم بكل مدخراتهم هى فى حقيقة امرها

اشياءه التى اشتراها لنفسه بشقاء ثلاث سنوات فى ليبيا ؟! ..
نعم ، لقد تمكن من السفر الى ليبيا بمعجزة منذ ثلاث سنوات ، وكان مؤذنا فى احد المساجد ، وكان يدعى أمام الأغراب انه أمام وأنه من ضحايا عبد الناصر الذى سجنه مع الاخوان المسلمين ، وحدث أن وفد الى القاهرة ثرى ليبى يطلب زوجة وبعض الخدم وكان « شلاده بخشوان » يقرأ « راتبا » لدى أسرة الزوجة فوقع فى عرضها فكلمت زوجها الثرى فقال انه ابتنى تحت منزله زاوية صغيرة ولا بأس من ان يصحبه معه الى ليبيا اماما لهذه الزاوية .
وفى ليبيا زعم انه من ضحايا انور السادات وأنه أخرج من بلده مطرودا بلا مال ولا زاد ولا متاع ، وبذلك حصل على الجنسية غير أن الماء دائما يكذب الغطاس المدعى ، فسرعان ما كشف ادعاءه المصلون ، وأهملوه تماما واختاروا لهم اماما من بينهم ، فآب الى وضعه الطبيعى مؤذنا ، ثم لم يعد يحظى بأى تقدير ، ثم ساءت المعاملة فطلب السفر ، وأخذ مدخراته فاشترى بها كل ما سمع عنه او جذب اهتمامه خلال فترة الاغتراب فى ليبيا ، فلما عاد من جديد الى القاهرة التى سيطرت على أحلامه اكتشف فجأة انه بلا اهل فيها ، وان المبيت فى المسجد لم يعد أمرا مستحبا خاصة وأنه قد صارت له ممتلكات كهذه ، فأصيب بيأس شديد وفكر فى الاستغناء عن بعض هذه الممتلكات لقاء أجر المبيت ، الا أن تفاهة العائد لم تشجعه على الاستمرار خاصة وأن جيبه لا يزال عامرا ببقايا جنيهات ، الى أن رأى نفسه مدفوعا للسفر بما معه بحثا عما يكون قد خبىء له فى المجهول ، فقاده الحظ السعيد الى هذه القرية الصغيرة الثانية .. فماذا يفعل الآن وقد نفدت بضاعته ، هل يتحول الى سوق أم يكتفى برزقه ويرتد عائدا ، ولكن الى أين ؟ ..
وفى الصباح عند تناول الفطور قال شلاده بخشوان لحمدى العرايشى :
— أن شاء الله أنا مسافر النهاردة .
— مسافر ليبيا ؟!
— ان شاء الله .

اشرق وجه حمدى بالبشر :

ــ كده على طول ؟

ــ اذا عزمت فتوكل على الله .

ــ يعنى خلاص زهقت مننا ؟

ــ لا .. دانا راجع ثانى .

ــ صحيح ؟

ــ امال .. الطلبات اللى الناس طلباها لازم أجيبها .

ــ على خيرة الله .

***

ثم كتب حمدى قائمة من طلباته الخاصة قدمها له ، تتضمن تليفزيونا ملونة وغسالة وثلاجة ان أمكن . وقال « شلاده بخشوان » ان كل شيء ممكن ولكن على المدى الطويل يسهلها المولى . فصدق حمدى كلامه وقام ليوصله بالعربة الى القاهرة .

« كل ذى عاهة جبار » .. هكذا يقول المثل فى قرية «البريمة» وفى كل القرى ، واذا اعتبرنا أن العمى عاهة بالنسبة لشلادة بخشوان فانه يكون مثلا صادقا تماما . ومهما يكن من امر من « شلاده بخشوان » جبار بكل معنى الكلمة . لقد مر بعربة حمدى العرايشى على أماكن متعددة فى المدينة توقف عندها ونزل كأى « بيك » من بكوات العصور القديمة ، وانتظره حمدى كأى سائق ، ثم يعود دون أن يذكر أى شيء عن الأماكن التى دخلها . ثم انه ودع حمدى فى المطار ، وما أن سمع صوت العربة الفورد القديمة المهانة يبتعد فى زئيط المدينة حتى استوقف تاكسيا وعاد به الى وكالة البلح .

على مقهى هناك التقى بمن تواعد معهم من اصدقائه القدامى ، وقاموا ببضع جولات فى وكالة البلح استمرت عدة أيام واسفرت عن مجموعة من الحقائب الكبيرة والبالات والشكائر والأجولة ، تجمعت كلها فى عربة « هوندا » نصف نقل ، واتخذت طريقها الى قرية البريمة . نفس الطريق الذى حفظة « شلاده بخشوان » عن ظهر قلب فصار وهو الأعمى يقود السائق ويحكى له اسماء واخبار هذه الصفوف من البيوت الطينية المتجاورة .

تجاوزت الأمور قدرة « حمدى العرايشى » على السيطرة فخرجت البضائع من نطاق داره ، فتحولت القرية الى سوق كبيرة ، ونشأ له سماسرة ومروجون وخبراء بلا خبرة حقيقية . حتى البقالون والخياطون وبائعوا الخضار اشتروا مجموعات من الأصناف بسمر الجملة وعرضوها فى محلاتهم بطريقة احسن وبأسعار مضاعفة .

ارتفع صيت حمدى العرايشى وصار نجما لامعا فى البلد . وصارت العربة نصف نقل « الهوندا » تدخل البلدة كل بضعة أيام فتحدث رجة كبرى . وجرت الفلوس فى كل الأيدى بقدرة قادر . فما أسهل على أى صعلوك خاوى اليد أن يشترى قطعة قماش بفلوس الآخرين ثم يبيعها بعد دقيقة فيكسب فيها ثم يشترى غيرها لصاحب الفلوس ، وقد يلعب هذه اللعبة عدة مرات فى اليوم .

وطوال هذه الأيام كان « شلادة بخشوان » يحلو له الخروج ليتمشى عند ترعة البلد بصحبة « حمدى العرايشى » ؛ فيجد الحفاوة والاحترام الشديدين من كل الناس ، ويتلقى العزائم ويتولى حمدى الاعتذار عنه لمشاغله الكبيرة ، وان هى الا أيام أخرى حتى اهمل « حمدى » عربته وصار مجرد مدير أعمال لـ « شلاده بخشوان » وصارت عربته مخصصة لمشاوير شلاده فحسب . وكان يبدو على « شلاده بخشوان » انه يزمع الحديث فى أمر ما ولكنه يحجم فى اللحظة الاخيرة ، فكثيرا ما قال لـ « حمدى » : « عايز أكلمك فى موضوع كده بس مش دلوقت » ، فلما اشتاق حمدى الى معرفة هذا الموضوع ذهب الى « سيد الجمال » فى « عزبة العبيد » واشترى منه تعميرة محترمة ، واغلق كل الابواب والنوافذ ثم أوقد النار وصهللت الجوزة فكشف عن حشاش كبير جدا فى ثياب « شلاده بخشوان » ، ثم أن حمدى ضرب السيخ المحمى فى قلب الجوزة وراح يدكه بعنف شديد وهو يقول :

ــ موضوع ايه اللى عاوز تكلمنى فيه ؟

اعتدل شلاده بخشوان ومسح على كرشه :

ــ بصراحة بقى .. عايز اتجوز !

ـ طب يا اخى قول كده من الصبح ..

قالها فى بهجة ممطوطة وقد احس ان ثمة بابا جديدا للكسب فتح أمامه ، لكنه سرعان ما احس بخفقة من قلبه غير عادية ، كان قلبه سيسقط منه ، فان تزوج « شلاده بخشوان » معنـاه خروجه واســتقلاله بنفسه ، أو بمعنى أصح وضع نفسه تحت سيطرة جديدة يعلم الله من ستكون .

ـ تعرفليش عروسة بنت حلال كده وغلبانة ؟

ـ طبعا اعرف .. واهم حاجة تكون غلبانة .. خدوهم فقراء يغنيكم الله .

ـ عليك نور .. بس تكون حلوة كدة ومتختخة !

ـ وناوى تسكن بيها فين ؟

ـ فى اى بيت .. وان حكمت نبنى لها بيت ..

ـ ع العموم ما تشيلش هم .. تقدر تسكن عندى لحد ما يحلها ربنا .

ـ اللى تشوفه .

ولم يكد ينتهى الحديث حتى كان « حمدى العرايشى » قد حدد العروس تحديدا قاطعا وبلا رجعة . فالبنت « فكيهة » بنت المرحوم مرشدى لا يطرق بابها الخطاب أبدا ، على الرغم من انها اجمل جميلات البلد ، والكل يقع من طوله حين تمر عليهم ، حتى نساء القرية يغازلنها لأنهـا بحضورهاتضعهن فى خانة الذكور . وقد كانت أمها تنام على كنز دفين من فلوس المرحوم وقد درج النـاس فى بلده على عدم الزواج من الجميلات لأنهن فتنـة ولأنهن ـ بالقطع ـ غير شريفات ! .. وصحيح أن أحد من اهل البلدة لم يضبط « فكيهة » متلبسة ، ولم يمسك عليها فعلا شائنا ، ولكن الجميع يؤكدون دائما انها على علاقة ما ببعض الرجال ، وقـد يكون فلانا وقد يكون علانا ولكن ليس من المعقول أن تظل فكيهة بلا علاقة خاصة وأنها ليسنت فى حماية رجل . وتنهد « حمـدى العرايشى » وهو يقول فى نفسه : آن الأوان لأن يعرف هو قيمة الكنز الدفين لدى « أم فكيهة » .

ان كان على الأم فهى موافقة بلا تردد ، وان كان على « فكيهة »

فان موقفها تجاوز حدود الصمت الى حد اعلان السعادة ، متيمنة فى ذلك بمثل أصيل « ضل راجل ولا ضل حيط » . وأما بخصوص الكنز فقد كانت « أم فكيهة » واضحة تماما ، اذ اوضحت له حقيقة الامر مصرحه ما لديها : الى جانب ربع نصف الفدان الذى ورثته عن المرحوم هناك قرط ذهبى كان فى أعماق « الصحارة » تدخره لخرجتها – أى للصرف من ثمنه على موتها . وكان لابد لحمدى أن يرى القرط ويختبره ، وكجزء من الاختبار وضعه فى جيبه فلم تعترض « أم فكيهة » وان أحست بقلبها ينقبض ، ولعله انقبض من فرط ما تمثل لها شبح البوار فى سوق ابنتها الوحيدة العزيزة ، بقيت هنـاك مشكلة ومشـــكلة خطيرة : ان « شلاده بخشوان » يحب ان يختبر جمال البنت ، وهذا من حقه ، لكن كيف يتم له ذلك ، وكيف يكون وجه « أم فكيهة » أمام أهل البلد ؟ انها تعرف ان ابنتها موضع كلام وحديث ويعلم الله كم يعذبها ذلك اذ هى تعرف حقيقة ابنتها جيدا . فهل تساهم بدورها فى المزيد من تسوىء سمعتها ؟!

هنا قال « حمدى العرايشى » ان الأمر بسيط ، فهو واثق ان « شلادة بخشوان » سيدخل بيتها دخلة واحدة ينتهى فى اعقابها كل شىء ، فالبنت أنثى وشلاده فحل هائج متعجل وان الأمر لن يتعدى مجرد اللمس باليد مرة والاستماع الى صوت البنت مرة وشرب الشاى من يدها مرة ، ثم قال لهـــا أن التليفزيون يريهم السلوك الواجب أتباعه عند الخطوبة ، ألا ترين ان الخطيب والخطيبة يفعلان كل شىء عيانا بيانا ؟ . فتنهدت من أعماق صدرها وقالت على الله التساهيل والستر .

كان « حمدى العرايشى » مصيبا فيما قال ، واستجاب الله لدعوة « أم فكيهة » بالستر ، اذ لم يستغرق الأمر سوى جلسة واحدة ، فعلى حد قوله انه اشتم رائحتها منذ أهلت ، وانه كان يبصرها تماما اذ هى جالسة بجواره ، فلما امتدت يده نحـوها لم تخطىء طريقها أبدا .

اشتركت القرية كلها فى الفرح ، وكان فرحا بهيجا بحق لم تشهد له القرية مثيلا من قبل . وزف « شلاده بخشوان » الى

« فكيهة مرشدى » على سرير « حمدى العرايشى » كان « حمدى » فى أعماقه مبسوطا ، وفى ليلة الدخلة أشرف بنفسه على حمام « شلاده » وعلى مزاجه فظل به حتى مطلع الفجر كلما فتح شلاده باب حجرة النوم وجد فى انتظاره طاقم من الحجارة المرصوصة ، ووجد النار فى وهج .

فى الصباحية كان « شلاده » قد خلع الحزام الجلدى من وسطه واستغنى عنه نهائيا وترك لفكيهة مهمة الاحتفاظ بما ينطوى عليه من ورق النقود الحمراء الخضراء . وكانت العربة « الهوندا » نصف النقل لا تنى تجىء من وكالة البلح الى قرية « البريمة » بلا توقف حتى دون أن يسافر لها « شلاده » وكان السائق واثنان يرافقانه يحلو لهم الوقوف أمام المتفرجين على نزول البضـــائع ويتكلمون بلهجة ليبية ويلبغون « شلاده » سلام فلان وفلان وفلانة من أجاويد ليبيا . حتى حين أصيبت العلاقات بين ليبيا ومصر بالانهيار كما يزعم الراديو ظلت العربة الهوندا تؤكد قيام العلاقات وتؤكد ان المسـألة « بسيطة » وان ما بيننا وبين « ليبيا » حبـة زعل ، وسوف يروق الجو عما قريب .

لم يكن « حمدى العرايشى » يتوقع هذه المفاجأة ، لكنه احتملها، صحيح أن « فكيهة » التى خدمها ضربته خازوقا كبيرا طلع من نخاعه ولكنه لم ينسى أنها تعمل دائما على تمكين العلاقة بينه وبين « شلاده » ومنحه المزيد من الثقة . ولذا لم تطل دهشته حينما سمع أن « فكيهة » قد اشترت قطعة أرض مجاورة لتبنى عليهـا « فيللا » أنيقة تقيم فيها مع زوجها ، وأن هذه الفيللا ستكون باسمها كما رغب « شلاده » ، لقد أحس أن « شلاده » ينسحب من تحت سيطرته ، وأن نهر المكاسب الذى كان ينحدر نحوه سوف يستقيم ، حسن ، أنه ـ « حمدى » ـ لن يستطيع الوقوف فى وجه التيار والا كان مجنونا لن يقوى على كسر قوام النهر حتى يظل منحدرا نحوه ، ومن الخطأ محاولة ذلك ، فخير له اذن أن يظل النهر يمر به ولو مرور الكرام ، وعموما اذا لم يذهب الجبل الى محمد فليذهب محمد الى الجبل ، هكذا سمع الوعاظ يقولون،

وهو يستطيع ان يلحق النهر اذا ما النهر غادره ، المهم الا يجف النهر تماما .

ذهب « حمدى » الى « فكيهة » وعاتبها باحترام شديد كيف تفعل ما فعلته من ورائه وهو لهـا بمثابة الأخ ، الم يكن وكيلها فى عقد الزواج ؟ ان ما فعلته خير أسعده ، ولكنها ان شاورته لجاء لها بفرص أحسن ، وعموما فهو لا يزال تحت أمرها ، واكراما لها ولزوجها سوف يتولى الاشراف على بناء هذه الفيللا بمزاجه ، وسوف يجعل منها أعظم بيت فى البلد .

فلمعت فى عينيها نظرة ذكية قالت بها أشياء كثيرة ، وقالت أيضا أنها موافقة على ان يظل يستنفع من ورائها ولكن عليه — فحسب — أن يترفق بها وبالرجل الضرير . وقد حلا لحمدى أن يتغافل عن هذه الغمزة وان بدا أن جديته قد باخت . وهو فى كل غدوه ورواحه ، وعند سفره لشراء الطوب من أمكنة بعيدة ، ولاستلقاط الأسمنت من السوق السوداء وكل الاسواق السوداء بعيدة مكلفة ، ولجلب الحديد « بطلوع الروح » ، وفى الاصرار على استدعاء « المهندذ » من المدينة .. فى كل ذلك يعلم أنه مكشوف وأن حماسه مجرد « هجص » وأن الأطفـــال فى أيدى امهاتهم يعرفون انه ينهب « شلاده » ولكنه مع ذلك لم يكن يخفت له حماس ولم يكن يمل من تعليق الابتسامة القادمة هى الاخرى من وكالة البلح ، ولم يكن الامر يخلو من مداعبات شبان خبثاء ، أو تعليقات جارحة من البنائين والعاملين الا انه لم يكن يأبه لهـا ، بل كان يضحك فى خبث شديد وشاحب مرددا بينه وبين نفسه : مساكين يعتبروننى أنهب شلاده بخشوان ولا يحقـدون على شلاده بخشوان الذى ينهبهم ويبيع لهم أشياء سبق بيعها مرارا وتكرارا .

ولا تسل عن الاشراق الذى حل بالقرية يوم اكتملت « الفيللا » وتصدرت مدخل الطريق الى البلد ، فقد اكتسحت كل ما أمامهـا وحولها من بيوت حتى بيوت القـــادمين من الامارات . تحولت « فكيهة » الى أسطورة لا تقل شـــأنا عن أسطورة ست الحسن والجمال ، أليست تنتقل بين عشية وضحاها من عشة الى سراية، وترتدى أفخر الثياب . فجأة صارت سيدة تطـــل من البلكونة

وتجلس فى الفراندة ويزورها النساء ليقمن عنها بكل الاشغال .
وصار لهـا حديقة وبستان وخادم يقول لها : يا ست ، وانتقلت امها لتعيش معها سيدة هى الاخرى وبان عليها العز خاصة عنـدما نقيم الصلاة ملتفة بطرحتها البيضاء الحـريرية . كان الجميع يحترمونها بحق وتلمس صدقهم من على بعد ، الا « حمـدى العرايشى » رغم مبالغته الشديدة فى احترامها . كانت نظراته دائما تشككها فى سعادتها ، كانت تقول لها ان هذه السعادة وهذه السيادة مشتراه كلها من وكالة البلح ، وانها سبق أن بيعت عشرات المرات ، فيها عرق الآخرين وذكرياتهم وشقائهم ، فيها أيضـا سعادتهم وتعاستهم ، هى أشياء فقدت اثمانها ولكن كل ذى عاهة جبار يبيعها بأغلى الأثمان فى سوق الحرمان ـ كان « حمـدى العرايشى » يوشك أن يشرح كل هذا لفكيهة بكل وضوح وجلاء ، غير أن « فكيهة » كانت تسد عليـه كل المنحنيات والمنعطفات ، فقد كانت أذكى منه بكثير ، فاذا كان فيه ذكاء المرابين المكتنزين ففيها ذكاء الفقر ، ذكاؤه ذكاء النمر المفترس يعرف أين بالضبط يغرس نابه ، وذكاؤها ذكاء الاحلام التى طال احتباسها وقد حان أن تتنفس فلتكن هذه الحياة كلها مشتراه من وكالة البلح بتراب الفلوس ، فلتكن هى وكالة البلح نفسها طالما هى قد وضعت يدها على ما كان فى خزائن الحلم ، وصحيح أنها تلبس ثيابا خلعهـا الآخرون ولكنها تدخل حياة جديدة .

ومرت الشهور سعيدة هنية لا يشوبها شائبة تعكر صفوها . وتربع « شلاده بخشوان » ولظلظ وبدت عليـه سمات الأمارة والعز . ولكن ثمة شىء ما كان يدور فى الخفاء ولم يكن يلحظه فى البداية غير « حمدى العرايشى » ، فقد راقب « فكيهة » وعرف من مصادره الخاصة انها تذهب فى مشاوير مسائية طويلة ، وتسافر أحيانا الى المدينة فى عربة مخصوص ، ولما طقس واستقصى عرف أنها مشغولة بأمر الخلفة ، فابتسم الشيطان فى أعماقه وتركهـا تبحث . ثم أن الخبر بدأ يسرى فى القرية ويتهامس به الناس فيما يشبه الاشفاق الشديد على « شلاده » كأنهم جميعا يحملون مسئولية ثروته وكيف أنه لن ينجب من يرثها ! مع حبهم الشديد لفكيهة .. غير ان الجد الله .. الله عليه .

وجلس « شلاده بخشوان » الى « حمدى العرايشى » واستمتع بأنفاسه وعنايته برعى النار على الحجر وحرصه على تغيير الجوزة وتنظيفها . وحين سخن الحديد رفع « حمدى » مطرقته وهوى بها قائلا :

ـ باين عليـك مشغول .. انا عارف كل حاجة .. وحاسس بمأساتك .

وكان يعرف أن هذه الجملة الاخيرة مجرد جملة التصقت بذهنه من حوار التمثيليات ولكنه استطعم قولها ، ثم أضاف على الفور :

ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. وانت لابد لك من ولد .

بدا على «شلاده» انه تذكر هذا الموضوع فجاة ، وتذكر «فكيهة» وما تثيره فى لبه من هياج ، لكنه قال :

ـ أى نعم صدقت والله .. لقد اشتقت الى ولد .. ولكن ماذا أفعل ؟

ـ ما رايك فى فكيهة ؟.

ـ الحق لله بنت لا تعوض .. غلبانة ومريحانى خالص .. وباسطانى .

ـ فيه أحلى منها .. بس بقى . الخلفة عندهم من غير عدد .. أنها بتولد على الأربعين ...

ـ طب وفكيهة ؟

ـ فى بيتها .. زى ما هى على زمتك برضه ..

ـ طب وهى حتسكت ؟ ..

ـ وحتعمل ايه يعنى ؟ .. ولا تقدر تعمل حاجة .. اتوكل على الله وما يهمكش .

ـ خلاص .. توكلنا على الله .

وحين نطق بهذه الكلمة كان فى ذهنه افتتاح بلدان جـديدة مجاورة ، وكان يحس أن العربة « هوندا » نصف النقل يجب أن تكون كبيرة .

***

انتعش الليل فى بيت « حمدى العرايشى » طوال عدة اسابيع وفود من النساء تتلوها وفود ، والهدايا تسرب خلسة قبل أن يلتقى

الرجال « صدفة » ويجر الكلام بعضه جرا ، كانما هو صدفة أيضا ، وكل وفد من الوفود يباع للذى يليه ، حتى اذا ما أحس « حمدى » انه لم يعد في عيون الوفود دموعا يذرفنها فى داره كان قد انتقى العروس المقبلة . يتيمة هى الاخرى من اليتيمات الكثيرات اللاتى مات آباؤهن فى مناسبات عديدة . عندها ثلاثة قراريط ملك ، لا مانع لديها من بيعها له بأى مبلغ يراه ، وليس من شرط لها سوى أن يكون لها بيت لا يقل عن بيت « فكيهة » وتعهد لها حمدى بذلك . ولم تكن « وجنات » لتقل عن « فكيهة » جمالا ولا ذكاء حلم .

راحت « فكيهة » ترقب حركة البناء التى نشأت فى مواجهتها على المدخل الآخر للبلد ، تحقيقا للانعزال والبراح ، وكانت قد عرفت كل شيء ، بل أنها اختارت عن اقتناع تام ان تسلم بما حدث ، ونشطت منابع الحكمة الموروثة فيها منذ آلاف السنين وافهمتها ان ليس الحياة المخلوعة لا يعلم الانسان كيف يخلع أو يستغنى ، انه على العكس يعلمه كيف يستبقى ويتشبث . ولقد تشبثت ، ولكن بمنتهى العقل والحكمة ، ها هى ذى تملك فيللا وبعض مدخرات ثمينة ، وسوف تعيش على نفس الحال طالما « شلاده بخشوان » على قيد الحياة ، فليفعل ما يحلو له .

وعبر هذه القنطرة المتينة انتقل « شلادة بخشوان » الى الفيللا الاخرى القائمة على رأس المدخل الثانى للبلد . واستقبلته « وجنات » احسن استقبال فادارت رأسه وايقظت فيه سعارا جنسيا هائلا ، حتى انه قال « لحمدى العرايشى » وهو يشد نفس الجوزة :

ــ تصور يا حمدى أن الدنيا كان فيها كل هذا .

قال حمدى بدون احساس :

ــ شوف انت بقى ؟

بعد برهة قال « شلاده » بخبث هذه المرة :

ــ لكن يظهر انها مش ناوية تعملها هى راخره !

ــ يعنى ايه ؟

ــ بقى لنا كام شهر والعادة مستمرة !

ـ مش معقول !

ـ صحيح .. هى دى بقى العـــادة الوحيدة اللى الواحد ما يتمنهاش !

ـ على العموم اصبر وربنا يسهل .

وفى تلك اللحظة كان خيالا شيطانية قد بدأ يغزو أفق عينيه سابحا مع كتل الدخان الازرق التى كانت من فرط كثافتهـا تكاد تمطر فى سماء هذه الغرفة .

***

توطد مركز « شلاده بخشوان » فى المنطقة وأصبح كما يقـول البلغاء العرب نارا على علم ، ولم يعـد فى حاجة الى خطط أو مشاريع جديدة تسنده ، بل ان فرية أنه ثرى ليبى لم تعـد فى حاجة الى اثبات ولن يصدق أحد عكسها . لقد صـار « شـلاده بخشوان» قوة كبيرة فىالمنطقة بقدر عدد المستفيدين من بقائه ، انهم جنوده الشجعان ، انها مملكة جديدة نشأت وأصبح لها حاشية ومعلمين وصبيان وقد صفصفت الجو خلال الاعوام القليلة عن بضع رجال عتاه أصبحوا من عتاه التجار فى المنطقة ، أصبحوا يقومون بكل شىء وما على « شلاده بخشوان » سوى التمويل بالبضائع ، بل أنه صار يتعاقد ويقبض الفلوس فيما هو جالس فى صالونه ، ثم تجىء العربات الى عناوينهم وبأسمائهم ، كان قد تنازل عن نسبة مئوية من مكسبه لحسابهم ، أما هم فضاعفوها فى القطاعى اضعافا مضاعفة . وانتقل الحزام الجلدى من حضن الزوجة الى حضن أحد البنوك وصــار دفترا ابيضـا يستطيع « شلاده » أن يملأه بأى مبلغ يشــاء لأى مستفيد يشاء . ولم يتخل عن صـحبة « حمدى » لأن « حمدى » لم يسمح له بذلك مطلقا ، أنه ولد « عشرى » يصون العيش والملح .

ويبدو أن « وجنات » كانت ذات أصول اعرق قليلا من أصول « فكيهة » . هى صحيح تشـــاركها فى اليتم لكن شـــتان بين الأصلين ، ففكيهة كانت ابنة لأجير أما وجنـــات فـكانت ابنة لمالك من الأعيان جار عليه الزمن ، واذا كانت فكيهة تملك نصف فدان فان المرحوم ظل عمره يحوش ثمنه ، واذا كانت وجنات

تملك ثلاثة قراريط فانها بقايا ممتلكات ، والمهم من كل ذلك ان « وجنات » كانت ـ كجسد ـ اقـــل فورة واكتنازا وبروزات من « فكيهة » المتفجرة ، الا انها انثى من الداخل أكثر من فكيهة بما لا يقاس ، حتى أن « شلاده بخشوان » نسى « فـكيهة » تماما وارتمى فى حضن « وجنات » ولم يكن هناك شيء ينقص صفاءه غير أن العادة الشهرية لم تنقطع رغم مرور كل الشهور ، الأمر الذى يجعل السعادة ناقصة نصفها بالضبط ، فها هو ذا المـال ينســاب كالنهر بين يديه ولكن المال بدون بنين كالنهر بدون أرض يرويها .

والحق أن « فكيهة » وان كانت سليلة فقر مدقع منذ عشرات الاجيال الا انها ظلت متماسكة محافظة على سمعتها ، ولكن ذاكرة الناس لا تهمد ابدا ، فسرعان ما رجعت الى دفاترها القديمة وبعثت الى الوجود تاريخ سلوكها وما كان يدور حولهـــا من اشاعات ، وراحت الألسن الهامسة تربط بين هذه الذكريات وبين ما يرونه الآن يحدث .. ذلك أن « فكيهة » قد بدأت فى الشهور الاخيرة تستقبل فى « فيللتها » بعض كبار التجار الذين يمولهم زوجها بالبضائع . وقيل أنها تدبر للايقاع بزوجها ، وقيل أنها تشتغل لحسابها بعد أن عرفت سر المهنة ، وقيل أنها انما تطفيء غلتها الجنسية بعد أن حرمت تماما من زيارات شلاده الاسبوعية . لما بلغت هذه الأقاويل سمعها نزلت عليها بردا وسلاما ، واغلقت أذنها عنها ، بل ولم تحفل بالدفاع عن نفسها .

وحين عنى « حمدى » بطرح موضوعها أمام « شلاده بخشوان » لم يعن بالوقوف عنده طويلا انما ذابت سيرتها وتبخرت مع الدخان الأزرق ، وكان « شلاده » مشغولا هذه المرة لحد الاكفهرار . وقال له « حمدى » :

ـ اعرض نفسك على الطبيب ..

فقال « شلاده » :

ـ انا واثق من نفسى .. لقد سبق أن انجبت .

ـ كنت متزوجا من قبل ؟! ..

ـ أى نعم .. يرحمها الله « أم على » عاشت معى أياما سوداء . وكانت تنجب اولادا ضعافا يموتون .. ثم ماتت هى نفسها .

زام « حمدى » مثل الكلب يجامل سيده :

ـ خلاص .. البذرة سـليمة والارض مالحة .. ابحث عن غيرها ..

وقال « شلاده » :

ـ عندك عروس ؟

كانت جعبة « حمدى » حافلة مقدما باليتيمات الفقيرات وكلهن صالحات للافراء ، ولكنه مع ذلك قال :

ـ يساويها ربنا .

***

اقيمت الفيللا الثـالثة على المدخل الجنـوبى للبلد وانتقلت « سبيله » من « عزبة العلمين » الى حياة القصور . وفى ليلة فرحها تحولت القرية كلها الى مجموعات من مجالس الحـكماء ، حتى الاطفال الصغار تحولوا فى هذه المجالس الى فلاسفة يرقبون ويتأملون الامر فى دهشة ويستمعون ويشاركون فى الحديث ، وكان محور الحديث كله : كيف تفتح أبواب السعد هكذا دفعـة واحدة أمام الذين لم يكونوا فى الحسبان ! .. « سبيله »!! هـذه مثلا ، هل كان أحد يتصور أن الله يتوب عليها من ألف فى الغيطان بابريق العرقسوس حيث تسـقى الانفار أيام الحصـاد ما يبل الريق نظير حزمة أو حزمتين مما يحصدون ! وحيث يتجاوز السقى ابريقها فتسقى من ريقها ومن لمس جسدها ! ..

كان الجميع يعتقدون أنها لا يمكن أن تتزوج فى يوم من الايام فاذا بها تصبح سيدة بمعنى الكلمة ، واذا بمن كن يعطفن عليها يأملن فى أن يكن بعض وصيفاتها ، هذه حكمة عميقة ودرس من السماء وهى أيضا من علامات الساعة : ان تنقلب الاوضاع والمعايير هكذا راسا على عقب . ولكن السـؤال الذى لم يـكف عن النباح فى ادمغتهم : كيف تم هـذا ؟ .. فليس لدى « سبيله » ما تنفحه لحمدى العرايشى مقابل الايقاع بشلاده فى حبائلها ؟! .. غير أن شبان القرية الخبثاء لفتوا أنظار آبائهم الى أن « سبيله » هى فى الواقع معشوقة « حمدى العرايشى » وأنه خدمها مجانا ليسترها فتظل بالنسبة له بمثابة بئر الساقية الذى يحتجز الماء فى جوفه

لتوصلها فواديس حمدى الى جيبه هو ورغم أن احدا لم يكن قد راى دليلا قاطعا على صدق هذه الاشاعة الا ان الجميع لم يجدوا تفسيرا اقرب الى المنطق منه فصدقوه دون مناقشة !

تحيرت « وجنات » ماذا تفعل ، انها اميز عن غيرها ، تعرف المدينة قبلهن وطبعها طبع مدنى كما يشـــهد الجميع ، وتفهم فى السيما والافلام التليفزيونية وتعرف جيدا كيف ترضى زوجها ، وتحفظ دواوين من حوار العشق الساخن ، وتزين نفسها حتى يراها ويحسبها الاعمى .. فكيف استطاعت هذه البنت السنكوحة أن تستولى على زوجها هكذا ؟ لقــد مضى شهر فى اثر شهر لم يتصل بها وان كان يبعث لها السلامات والتحيات . ولكنها كانت اشد من « فكيهة » وعيا بطبيعة زوجها ؟ فهو ثور ، حيوان جنسى لا يشبع ، ومثله لا يرده القديم عن الجديد بحال ، فليذهب الى الجحيم طالما أنها ضمنت مستقبلها المادى . ولم يمضى ثلاثة شهور على غياب زوجها حتى صارت كالنمرة المحبوسة فى قفص ، وكان « حمدى العرايشى » يراقبها من بعيد فى شماتة ، وكان يعرف ان عشرتها لشلاده بخشوان ـ باعتباره ثورا ـ قد خلق منهـــا لبؤة كبيرة .. ثم انه راح يرقب الصراع الخفى بينها وبين « فكيهة » فى اجتذاب كبار التجار ، حتى أنه لاحظ الفرق الجـوهرى بين الرغبتين : فاذا كانت فكيهة تجتـــــــذبهم لابتزاز أموالهم فان « وجنات » تجتذبهم لابتزاز دمائهم . كان يعرف هذا ولا يتكلم فهو فى الواقع مشغول بمزاح « شلاده بخشوان » ، ومشغول أيضا بما آل اليه حاله ..

ذلك أن نجم « حمدى العرايشى » قد اصبح ساطعا فى العب كله ، واصبح معششا فى بطون القرى والبلاد والعــزب المجاورة فتسعين فى المائة من أبقار ومواشى هذه البلاد ملك له وان كانت فى حوزة الآخرين ، وكان الى ذلك ذا نفوذ وسلطان كبيرين ، كان ـ وهو التمورجى ـ يستطيع أن يتحكم فى مصير الطبيب ومدير المستشفى ، ويصل تأثيره الى أعلى من ذلك بكثير .. وكانت العربة الفورد ذات الأصول النبيلة قد استراحت من أقدام الحفاة وغلظة مؤخراتهم ، وتغيرت قطعها وتغير لونها ، وصار يركبها ويقضى بها

مشاويره مرتديا الجلباب الصوف والعباءة ، وكان فى الايام الاخيرة قد بدأ يكثر من المشاوير خارج البلدة ، ويتودد الى الناس كبيرهم وصغيرهم على غير العادة ، واحس الناس ان فى الامر شيئا سوف تسفر عنه الايام القليلة القادمة .

***

كان « شلاده بخشوان » قد بدأ يفتقد « حمدى العرايشى » ويقضى الساعات فى انتظاره ، فما ان التقى به حتى أخذ يعاتبه فاذا بحمدى يقول له :

ـ انا أصلى عملت مشروع وعايز نفسك معايه .
ـ خيرا ؟
ـ رشحت نفسى .
ـ فين ؟
ـ لمجلس الشعب :
ـ بتتكلم جد ؟
ـ طبعا .. والدايرة تقريبا فى ايدى .
ـ ربنا معاك .
ـ نفسك معايه برضه ..
ـ نفسك معاية انت ..
ـ أنا خدام ..
ـ انا مش مبسوط .. البنت طلعت مش هى !
ـ سبيلة ؟ .. ازاى ؟ ..

بخبث والتواء :

ـ الوزة من قبل الفرح مدبوحة !
ـ مش ممكن .. وايه اللى مسكتك من نهارها ؟
ـ مكنتش متأكد كويس .. لكن دلوقت متأكد قوى !!
ـ غريبة .. وحتعمل ايه ؟
ـ الله يسهل لها .

لمح الخيال الشيطانى فى دماغ حمدى :

ـ فردة بلفة .. غيرها أحسن منها . عندى أكثر من واحدة .
ـ المرة دى بقى .. لازم أنا اللى اختار .. واشوف .
ـ وماله .. يساويها ربنا .

وشهدت قرية « البريمة » مهرجانا سريا لم يسبق له مثيل .

كان « حمدى العرايشى » يواصل الليل بالنهار داعيا الى انتخابه عضوا بمجلس الشعب وفى نفس الوقت باحثا عن عروس لشلاده بخشوان . فى كل يوم كانت الأخبار تصل « الى شلاده » عن فلانة بنت فلان وفلانة أخت فلان وفلانة شقيقة زوجة فلان ، ويسمع أوصافا لهذه وتلك ، ولكنه يصر على الرؤية والمعاينة والاستماع . وكان « حمدى » يستطيع انهاء الأمر على أسرع وجه ، لكنه أجل ذلك الى أن ينتهى من المهمة الكبيرة التى يقوم بها .

ويوم الانتخـــابات كان له العجب . كانت البلوفرات الأنيقة والجاكتات الشمواه والكرافتـات السولـكا قد زحفت فى طرق ودروب ، وشرقت وغربت يحملها المقاولون والتجار والسماسرة ، وأمام كل لجنة فى كل بلد تابعـــة للدائرة كنت ترى وفودا من مؤيدى « حمدى العرايشى » يباشرون مهامهم فى سيمفونية رعوية غليظة . وكان منافسه على الدائرة لا يتصور ــ وهو أستاذ الجامعة الكبير وابن عائلة لها فى السياسة باع طويل وفى خدمة الجمهور باع أطول ــ أنه يمكن أن ينهزم أمام شخص كهذا ، وكان وقــع الصدمة خفيفا حين أعلن انه لابد من الاعادة بينهما وفوجىء أستاذ الجامعة وهو يمارس نشاطه بوفود من « حمدى العرايشى » تزوره فى ود ، وتعرض عليه التنازل والاحتفاظ بماء وجهه ، وفى مقابل ذلك يأخذ كل ما صرفه ، فغضب الأستاذ وطردهم شر طردة . وكان المبلغ فى جيوبهم على اهبة الدفع فقرر « حمدى » أن يصرفه فى الدعاية ، فأخذ يصلى فى كل مسجد فريضة ويعطى المنح بلا حساب وأنطلق رجاله يوزعون الفانلات الملونة على الفقراء وكانت لديه بالة من البلاطى المخلوعة من لوردات انجلترا وامريكا فوزعها على كبار رجال العائلات عشية يوم الانتخابات .. وهتف الجميع باسمه .

وحين اذيعت النتيجة وتأكد « حمدى العرايشى » من أنه قــد صار نائبا عن الدائرة ، بدأ يتفرغ لشلاده بخشوان . كان على موعد مع عشرات الفتيات اليتيمات ، جئن لتقديم التهانى ، فاحتجزن فى القاعة الجوانية كلهن ، كان الليل قد أنفرد على كل الاطراف حينما جىء بشلاده بخشوان سرا لينتقى عروسه من بينهن ، وكن جميعا يعرفن انهن سيخضعن للاختبار ، وكن ينظرن الى بعضهن البعض فى حرج مكشوف .. ولكن من للبنات اليتامى بمن يحميهن من مثل هذه اللحظات ؟!

صاحب السعادة اللص



صاحب السعادة اللص

ولدتنى أمى فى واحد من هذه المخازن التى آلت ملكيتها الى « الحاج سعيد النمس » ، وكانت فى الأصل ملكا لمحمود الوزان .. وكان « الوزان » متزوجا من « جليلة الخشاب » أم « سعيد النمس » هربا من زوجتيه السابقتين حيث انجبت كل واحدة عددا من الأطفال ضايقه فى عيشته وفى مزاجه ، فالتقط « جليلة الخشاب » باعتبارها امرأة حلوة رغم بلوغهـــا سن الخمسين ، وباعتبارها نظيفة ولا أمل فى أن تنجب له مزيدا من الاطفال ، وان كان على ابنها « سعيد » فيمكن اعتباره من جملة اطفاله ..

كنت فى ذلك الحين طفلا يقول البعض عنى اننى مجنون ، ويقول البعض الآخر اننى جدع وواع ، وكانوا جميعا يرجعون شقاوتى وجنونى وكل شىء فى الى كونى يتيم الأب ! . وكان « سعيد » هذا هو الآخر طفلا ويتيما أيضا ، لكنه كان شديد الهبل بحق وحقيق ، فلم يقل عنه احد شيئا صالحا ، بل اجمعوا على انه لن ينفع فى حياته كما اجمعوا على اننى سيكون لى مستقبل كبير باذن الله . كان يتخانق مع طوب الأرض ولا أحد يزعل منه أبدا ، أبدا ، لهبله من ناحية ، وليتمه من ناحية أخرى . ولكن فجأة انتشر الخفراء فى البلد يجمعون الاطفال من الدور ومن الحقول ليدخلوهم المدرسة الالزامية ، وقـال النـاس كيف يكون ذلك ؟ فقالوا لهم أن هناك رجلا يدعى الدكتور « طه حسين » جعل العلم بالمجان ، فهرب الناس أولادهم وخافوا ، ذلك أن الحكومة لا يمكن أن تفعل شيئا فيه مصلحة للناس ، ولابد انهـــا تحجج بالمـدارس وستأخذ الأولاد للسخرة أو لحراسة قصور الملك ، وظلت امى تفكر فى تهريبى مدة طويلة الى ان فوجئت بأن احدا من الخفراء لم يطلبنى بالاسم ، فتركتنى أجرى خلفها فى مخـــازن الوزان واساعدها لقاء قرشين فى اليوم . أما « سعيد » فانه لم يهرب ،

بل فرحت أمه وفرحت البلدة كلها لان المدرسة سوف تلمه وتحبسه بين جدرانها وتريحهم منه ، الوحيد الذى لم يفرح لهذا هو « الوزان » وكان يقف فى الحوش صائحا بين الرجال فى غضب :

ــ الحكومة دى مش لاقية لها شغلة ! ..

فيرد أحد الرجال الحكماء :

ــ ليه بس .. عايزة تعلم الشعب القراية والكتابة .

فيستدير الوزان مشوحا له :

ــ احنا بندفع لأولادنا مصاريف .. ازاى الحكومة تلم الصيع الحافيين وتحطهم فى فصل واحد مع ولادنا ؟ .. بقى اسمه كلام ؟ .. المدرسة دى حاجة خصوصية نظيفة ، ميصحش يفتحوها على البحرى .. الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لا تعلموا أولاد السفلة العلم !

يرد رجل آخر :

ــ ده حديث مدخول ياعم الوزان ..

فيصرخ الوزان :

ــ مدخول فى عينك .. انت ايش عرفك انت .

وتقول سيدة مسنة وهى تجمع نتف القطن من الارض :

ــ على العموم الواد ابن جليلة ده عمره ماهو نافع .. دا ولد اهبل .. هو كل من دخل المدرسة ! ..

فيشوح « الوزان » من جديد ويتدحرج بقامته القصيرة الى حجرته التى يجلس فيها ليقابل التجار والفلاحين .

ولكن آه من هذه الأيام . ها هو ذا « الحاج سعيد النمس » قد صار شيئا آخر ، ورغم ذلك لا يزال شديد الهبل ، أما أنا فلم أصر شيئا ، ولا زلت أسمعهم يصفوننى بالجنون ! . ووالله ما أنا بمجنون ، وانما الحياة هى المجنونة ، والناس فى بلادنا أكثر جنونا . وهم يصفوننى بالجنون لأننى أفهم كل شىء يدور حولى ، وأطالب بحقى ، وهم يعرفون أننى صاحب حق ، وان ما أحكيه عن « الحاج سعيد النمس » حق كله ومع ذلك يتهموننى بالجنون لهذه الأسباب ! « فهل العاقل ــ كما يقولون ــ من يعرف ويسكت ، ومن يرى ويتعظ ، ومن يؤكل حقه فلا يفتح فمه ؟ » .

ويقول لك الواحد منهم ان حقك ضائع ولهذا وجب السكوت واراحة البال . وأنا أقول ان حقــك ضــائع ولهــذا وجب الـكلام ولزم الجنون . والحاج « سعيد النمس » يتصور انني شيء تافه في مملكته ، وانني ان كنت نارا فلن أحرق مطرحي ، ولهذا فهو اهبل . ولا قدرة للأهبل على الوقوف قبالة المجنون . فانا المالك الحقيقي لهذه المخازن وان كانت مفاتيحها في جيبه ، وانا الذي يعرف كل شيء فيها وان كانت دفاترها في درج مكتبه ، وانا الذي اعرف كيف آلت اليه وان كان هو نفسه لا يتصور انني اعرف .

اقول ان امي ولدتني في واحد من هذه المخازن . وقد حكت لي كثيرا عن لحظة مولدي ، ولكنني كثيرا ما اعتقد بانني رايت ذلك بعيني .. مجنون أنا ؟ .. ليكن .. وسوف أكرر انني — وأنا في بطن امي — رأيتها تحمل القفة على راسها قادمة من الحوش الكبير متجهة الى أحد المخازن ، عليها أن تقترب من غرارة كبيرة واقفة يتصاعد من قلبها رجل يدق القطن بقدميه .. فحين يراها يفرد لها حنك الفرارة لتدلق هي قفتها فيهــا ، وتستدير عائدة لتملأها من جديد ، وكنت أرى عشرات الفرارات تتجاور وعشرات النسوة تجلبن لها القطن ، وارى هزال أمي ووهنهــــا بينهن ، واسمع تأوهاتها ولعنها الحمل وسنينه .. فما كان مني الا ان انتهزت فرصة مالت فيها أمي نحو الفرارة فارجة ساقيها قليلا .. فلفظت نفسي مندفعا الى الأرض لكي أريحها من احد الحملين ، فما دامت هي مسكينة لا تملك ان تريح نفسها من حمل القطن فلأكن لطيفا وأريحها انا من حملي ، وقيل انني « ابن سبعة » اي سبعة أشهر فقط وانني لهــــذا دقيق الملامح صغيرها مهما كبرت بي السن ، ضئيل الجسم نحيفة ، ولهذا أطلقوا على اسم «أبو سبعة» وهكذا لم اعرف لي اسما آخر ، وانتظرت أن تأخذني الجهادية فلم تفعل ، وانا الآخر لم أسأل ، ولكن هناك من قال انني بدون شهادة ميلاد ، وهناك من قال انني معفي من الجهادية لاعالة أمي ، فلم يدهشني ذلك ، انما أدهشني ان يكون للانسان شهادة ميــلاد .. فمن أين يعطى هذه الشهادة ؟ .. لا ادرى .. وما لزمتها ؟ .. لا أدرى ايضا .. وهل هذه الورقة التي يحملها الانسان في جيبه هي التي تثبت انه مولود وحي يرزق ! . انها بدع فارغة ..

والطريف ان الناس يندهشون حين يعرفون أننى ابن سبعة ومع ذلك أعيش ، ويندهشون أكثر وأكثر حين يعلمون أننى بدون شهادة ميلاد ، حينئذ يشهقون ويبدو عليهم الأسى قائلين : « أتعرف ! .. سيكون هذا سببا فى الا تخرج لك شهادة وفاة » .. فما يكون منى سوى الضحك الكثير .. فأنا الذى لم يهمنى أمر شهادة الميلاد كيف يهمنى أمر شهادة الموت ؟ .. بحق الله ماذا جرى للناس ؟؟ ..

لكن كله كوم و « الحاج سعيد النمس » كوم وحده .. فأنا منذ اندفعت هابطا الى الارض فى مخزن « الوزان » لم أخرج منه حتى الآن ، وأبلغ من العمر كما يقولون واحدا وأربعين عاما ، قضيتها كلها فى خدمة الوزان ومن بعده « سعيد النمس » . ولم أعرف لى حتى الآن دخلا من خرج ، فعند العرى يكسينى وعند الجوع يطعمنى من فضـــــلاته ويكذب قائلا : لقمته بلقمتى وجلبـابه بجلبابى ، وفى غير ذلك لا يريد أن يفتح مخه أبدا .. وهو يسخرنى فى الكبيرة والصغيرة .. بصراحة «يستكردنى» .. واذا كنم تريدون معرفة ما أعمل فأقول لكم أننى ظهـــرت مرة فى التليفزيون ، نعم ظهرت غير انهم كانوا فى التمثيلية يسموننى الطواف وكانت العائلة التى أخدم فيها اسمها « عيلة الدوغرى » ، غير انهم نسوا كثيرا من الاعمال التى أقوم بها فى خدمة « الحاج سعيد النمس » ، ومع كل فأنا أثقل بالى حتى أشوف أخرتها معه ولابد للمجنون أن يغلب الاهبل ، وحين أضرب ضربتى لن يــكون لى ذنب حيث صبرت عليــــه صبر الابل ، ولم يحفظ الود ، وطلع فيها مرة واحدة .

طبعا تريدون معرفة كيف طلع فيها مرة واحدة . سأقول لكم بعد أن أشرب هذا الحجر .. بالمناسبة سأسقيكم تعميرة من تعميرة الحاج شخصيا ، خنصرتها منه وأنا أسقيه ، كنت أضع فمى فوق الحجر بحجة اننى أنفخه لأبكر الجوزة ، ويكون لسانى قد التقط التعميرة ، وفى الحال ادلق النار فوق الحجر والحاج يشد نفس المعسل بشدة ويتلمظ .. و .. وقبل أن أروى لكم كيف طلع فيها مرة واحدة أحب ان أعطيكم فكرة عن شىء ضرورى : ذلك انـكم

تعلمون أن « الحاج سعيد النمس » ليس انسانا يستحق الخدمة من الاصل ، وكل من فى حوزته ينفر نفورا الهيا من خدمته . أنتم لا ترون حمارته ساعة يركبها ، تركبها عفاريت الارض ، وحين لا تجد فائدة من هياجها تحزن رامية جسدها فوق الارض وليضربها بالحذاء أو بالرصاص فهى لن تقوم .. فكان يتوعدها بالويل ، هو أنه سيشترى سيارة خنزيرة ويدوسها بها كما نذر . وأنتم طول عمركم تستخدمون الاشياء بأن تمسكوا بها وتفعلوا ما تفعلون ، اما هو فان الاشياء كلها لا تطيق لمسه ، فجأة ينقلب البراض من يده ، يقفز كوب الشاى وينكسر ، تنفلت القلة من فمه .. فاذا به يملأ الدار بالأزرار ، يضغط على زر ويضع بوزه فى ماسورة الثلاجة فيشرب ، يضغط على زر فترتفع الصينية بالفنجان فيشفط منه الشاى والقهوة ، يضغط على زر فتنار الحجرة ، ينفتح التليفزيون ، تسير العربة ، تنفتح الخزينة ، الشيء الوحيد الذى لم ينفع معه الزر هو الجوزة ، ولولا هذه الجوزة لاستغنى عن خدمتى من زمان . ويا للفرجة التى كانت تحدث ساعة يرتدى جلبابا ، ما من جلباب يتضح انه لائق عليه ، وما من ثوب أو حذاء الا وملعون بائعة النصاب الفشاش .. فاذا به الآن يهجر الجلابيب ويجى الترزى لحد عنده ويفصل له الحلل والبلاطى والعباءات .. ويذهب الى مصر بالخنزيرة لينتقى الاحذية الغالية .. و .. واترون الى الكلب يضرب المثل فى الوفاء ويمتزج بمزاج صاحبه ويشم رائحته ؟ .. تفرجوا اذن على كلبه ، هذه هى المرة الوحيدة فى حياتى أرى فيها كلبا يضرب المثل فى عدم الوفاء ، لا يجرى نحو « الحاج نمس » ولا يطوح بذيله ولا يفعل شيئا بل يهوهو عليه كأى رجل غريب .. فاذا « بالحاج نمس » يسافر الى كلية الضباط ويشترى .. « كلب هول » من كلاب البوليس يصحبه معه فى كل مكان ويصرف عليه فى اليوم الواحد ما يصرف على أنا فى شهر !

وهكذا ترون أن كل شىء ها هنا كان يستخسر الخدمة فى « الحاج سعيد النمس » وكأن كل الناس والاشياء متفقة فيما بينها على الا يفيدوا هذا الرجل بشىء ومع ذلك . فان ثروة الحاج

« سعيد النمس » تضاعفت بشكل جنوني .. وكأن الكون كله قد اتفق مع بعضه على أن يوقع بكل الفرص الرابحة بين يديه وحده دون سائر البلد ! .. ونحن جميعا نعرف السبب ، وحتى الذين يسرقهم « الحاج سعيد النمس » يعرفون جيدا أنه يسرقهم ومع ذلك يساعدونه بل ويقيمون له الاحترام ! وهو من هبله يتصور أنهم لا يلحظون الاعيبه وانهم يحترمونه بحق ، انها لم تدخل على أنا المجنون فكيف تدخل على من هم اكثر جنونا مني ؟ .. بعد ذلك اشرب هذا الحجر وحدى ، حجر من نفسي .. !! .. أقول انه من كثرة هبله يتصور انني حين شاركته في تضليل الفلاحين كنت غائبا عن الوعي . كانت المحـــاصيل التي يوردونها الى الجمعية الزراعية ــ وهو امين مخازنها ــ تنتقل بجدعنتي أنا الى مخـــازن « الحـــاج نمس » بيني وبينكم كنت أتصور في حال المبتدىء أن « الحاج نمس » يحفظ أموال الحكومة في داره خوفا عليها من اللصوص ، ولكنني عرفت اللص الحقيقي ، وعرفت كل شيء من كثرة لطم الفلاحين لخدودهم وشق اطواق جلاليبهم ، يحدث ذلك في مندرة الحاج أمامنا جميعا ، بينما هو جالس تتدلى المسبحة بين « ثنايا كرشه » ، يقول للفلاحين انهم بعد أن وردوا محاصيلهم للجمعية فوجئوا بأن الحكومة تطالبهم بهـــا من جديد ، يشخط الحاج فيهم ، ينبه عليهم انهم بصموا بأصابعهم على المديونية ، وأن الدفاتر والاوراق هي الاصدق ، فهي أوراق دفاتر حكومية لا تغش .. هل يجرؤ أحد على الافتراء على الحكومة ؟! ..

لا طبعا لا سمح الله يا حاج .. الحكومة على راسنا .. لم نقل شيئا .

ــ انت مطلوب منك كذا أو كيت .

ــ كيف .

هكذا يقول الفلاح وهو يشوح بيده قبل أن يسند ذقنه عليها . ثم يبدأ الحساب من جديد . تخرج الدفاتر ، تنفرد الكشوفات ، يلمع الخاتم الذهبي في يد الحاج وهو يطوح بيده فوق الأوراق ، يحلف بالشباك الذى وضع يده عليه ، تؤيده طرقعـــات المسبحة اليسر .. يقول الفلاح بعد تفكير عميق :

ــ هى الحكومة عايزة منى كام بالضبط ؟ .. عاوزة ايه بالجملة ؟
ــ تانى ؟ ..

هكذا يصيح الحاج فى بأس وضيق ، يتكرع بصوت قبيح . يسبح الله ، يخجل الفلاح ، يكاد يتنازل عن سؤاله ، لكنه ــ ارضاء لضميره ــ يعود فيقول :

ــ عدم المؤاخذة أصل مش فاهم الحساب ده . انا كنت أخذت سلفة كذا . كويس قوى .. الحكومة كانت عايزة منى ايه قبل كده ؟ ..

تطول روح « الحاج نمس » يطلب شايا ، يتفضل بتقديم بعض الأكواب لبعض المحترمين منهم ، يعلق الابتســـامة على شفتيه ، يحكى موال كل يوم ، حيث يتضح ان الديون قديمة ، قديمة جدا ، ومتداخلة فى بعضها ، فدين الاصلاح يجر معه السلفية ، والسلفية كانت لها فوائد ، والقواعد قد دفعت من محصول العام ، وبقى دين الجمعية ، ودين الجمعية له غرامة ، وهنـــاك اهمال حدث فى كذا ، له مصاريف انقاذ قدرها كذا .. يتنهد الفلاح ينفخ من غيظ مكتوم .

ــ مانى عارف من الأول .. هو انا حاطول حاجة ؟ .. ما دامت الحكومة دخلت فى الوسط عليه العوض .. ربنا يسلم .. ربنا يسلم .. اذا طلعنا منها ملط يبقى ربنا كرمنا .. ويخبط الفلاح على ركبتيه متطايرا من الغضب ..

ــ يعنى تفضل طول السنة تأخد فى سلفيات وتصرف وتفنطز .. والآخر يصعب عليك رد حق الحكومة ؟ ..

ذلك ما يردده « الحاج نمس » فى هدوء وابتسام ..

ــ سلفيات ايه وزفت ايه يا ناس .. دى الحكاية كلها سلفية واحدة خدتها من سنتين ولا ما أعرف ثلاثة .

ــ أهو خدتها وخلاص .. الحمـــــــد لله انك اعترفت بأنك اخذت .. !

ــ ربنا يتوب علينا بقى .. أنا حازرعها فواكه زى بتاع مجلس الشعب .

ــ روح انشاء الله تزرعها شوك .

وهكذا كانت محاصيل البلدة كلها تذهب الى مخازن « الحاج نمس » وتأخذ الحكومة بدلا منها أوراق مديونات عليها بصمات ولا تنتهى . الناس تنشال وتنحط من الغيظ لكن لا تفتح فمهـــا بكلمة تكشف السر . الحق لله ربمـا متمخولة فى الأمر ، فان تزيد المديونية هكذا بدلا من ان تنقص رغم مواظبتهم على تسليم المحاصيل بكاملها امر يثير الشك ، الفلاحون لا يقرأون ولا يكتبون ويعتمدون على الله فى كل شىء ، وهم ليسوا أغبياء ، وحين يضيق صدرهم تكاد الكلمة تنطلق من أفواههم قائلة « للحاج نمس » .. « انت لص » ولكن هذه الكلمة لا تنطلق أبدا ، بل ينطلق بدلا منها كلام آخر يدعو للحاج بطول العمر وموفور الصحة !

العبد لله يقول لكم لماذا زادت المديونيات على الفـــلاحين مرة واحدة .. لقد رشح « الحاج نمس » نفسه فى الاشتراكى كمـا تعلمون ، ورأى ان الميل كله فى جانب خصمه . فصـــار يطلب الفلاحين الى داره . وبعث منـاديا ينـــادى بأن من يذهب اليه ستفوته فرصة العمر . فى المندرة اجتمع خلق كثير ، فأخذ يكلمهم عن الحالة وارتفاع الاسعار والعيـــد الداخل وكسوة الاولاد .. فاستكانوا جميعا بعد أن كـانوا متضررين . علق بعضهم بأن النواة تسند الزير ولكن أين هذه النواة . فقدم لهم الحاج كشفا طويلا من كشوف الجمعية ، وصار يوزع عليهم الاموال ، هذا خمس جنيهات وهذا عشرة جنيهات حسب أملاكه وعـدد أولاده ، وقال لهم انهـا منحة منه نذروها لله ، ولهم بـعد ذلك أن ينتخبوه أو لا ينتخبوه .

تعلمون ان معظم الفلاحين فى بلدنا يتركون اختامهم عند بعض الموظفين خاصة موظف الجمعية الزراعية .. هذه خصلة قديمة ، وقد استغلها « الحاج نمس » اسوأ استغلال ، ومنذ ان توسطت له « جمالات المنسى » وعينته فى الجمعية الزراعية فرض على جميع الفلاحين أن يدقوا اختاما ، وقد فعلوا ، وكان الواحد منهم يذهب الى سوق البلدة ضائقا ليقابل صانع الاختام ويتفق معه ، ويفاجأ بأن « الحاج نمس » جالس بجواره ويقول للفلاح فى خبث : « طب روح انت بقى يا فلان ما دمت مستعجل وانا حابقى أستلم

الختم بتاعك » .. ولم يكن يخطر ببالهم ان الحاج ينوى بهم شرا ، ورغم أن شروره كانت تصيبهم دائما الا أنهم يوم الانتخاب صدقوه وهللوا وهتفوا باسمه . خاصة وان الجمعيات الزراعية فى البلاد الأخرى لم تصرف سلفيات لأحد فى هذه الآونة ، الأمر الذى أكد لهم ان المنحة من جيبه الخاص ..

نجح طبعا فى الانتخاب ، وصار امينا للفلاحين على مستوى البلد ، ومر عام فى اثر عام والفلاحون يسلمون المحاصيل كلها ومع ذلك لا تنقضى المديونيات ، فيجن جنونهم ، ومن كان منهم على قدر من اللماضة طلب الكشف والحساب ، فاذا ما جاء الكشف والحساب تاه فى عشرين سكة ومائة حودة والف باب فيصفق كفا على كف ويطلب انهاء الحساب خوفا من أن يكشف التحاسب عن اعباء منسية ، الواحد حين تنهال عليه كرابيج الحساب من دفاتر « الحاج نمس » يقول فى نفسه « يامن يحوش عنى » ويتمنى وقف الكلام بأى ثمن .. ولكن هل عرف أحدهم أن « الحاج نمس » أضاف على حسابهم كل ما صرفه فى الدعاية الانتخابية هو واثنان آخران من موظفى الجمعية الذين يسيرون فى موكبه ؟ .. أشك فى أنهم يعرفون .. وأشك فى انهم لا يعرفون ، ان الذى أكلوه وز .. وز .. طفحوه : بط .. بط ..

اسمحوا لى بحجر من فضلكم .. أنا لست غرزجيا كما قد تتصورون ! .. لا .. أنا مثلى مثلكم كلما هفنى المزاج جئت الى هنا لأشرب حجرين بنفس واحد . وأنا لست اخدمكم الآن وامسك لكم الجوزة وأسقيكم لقاء أجر منكم أو من صاحب الغرزة ، أنا أسقيكم جدعنة ، وأنتم الأجدع .. مساء الخير ..

يشهد صاحب هذه « الغرة » وها هو ذا أمامكم فاسألوه — ان « الحاج نمس » جعلنى يده اليمنى فى كل شىء ، فالغرزة بجوار الجمعية كما ترون ، وكنت أجىء ها هنا فى المساء لأضرب حجرين واحمل الاجولة الى مخزن « الحـــــاج نمس » أتذكر يا عبد المعطى ؟ . قل لهم يا عبد المعطى عن أهل اليمن انسيت ؟ العيال الذين اخذتهم الجهادية وكانوا غلابة مثلنـــا .. ثم شحنتهم الجهادية الى اليمن ليحاربوا أعـداء لنا هنـاك لا أدرى من هم ،

كان العسكرى منهم يأخـــــذ فى اليوم خمسة جنيهات أو عشرة على ما أذكر .. لا .. لا أظن ان الضباط هم الذين اخـذوا عشرة .. المهم ان كل عسكرى من بلدنا هبش له مبلغا محترما من حرب اليمن ، أولاد الأرامل مثلى ، الذين كانوا يبيتون فى عشش عزبة العلمين ، عادوا من حرب اليمن وانشأوا لانفسهم دورا بالطوب الأحمر ، واللبن ، ولا زلت أذكره يوم كان « السيد ابو جلطة » يضرب ابنه العسكرى ضرب موت ويقـول له صارخا : اشـــمعنى انت ماتروحش اليمن يا ابن الكلب لازم انت مشاغب وتاعب قلبهم عشان كده ما ودوكش » . وكان الولد يصرخ ويجعر قائلا : « والله يا بابا ابدا .. دى أصلها بوسايط » ــ اظن فهمت الآن يا عبد المعطى قل للبكوات اذن كيف كان « الحاج نمس » ــ باعتباره أمينا للفلاحين ــ يتوسط للناس كى يسافر أولادهم العســاكر الى اليمن .. الله اعلم ماذا كان يفعل ؟ كنت أسافر معه الى المركز دورا والمحافظة دورا آخر ، ويدخـل الى ناس بلفائف الفطير وقوارير الســــمن البلدى ، وأحيانا بأردب أرز ، وحين نعود يذهب الى ناس ويبارك لهم بأن أولادهم العســـــاكر خلاص .. حيسافروا . أتعرفون يا بكوات كم كان يأخذ من العســـــــكرى الواحد ؟ . قـل لهم يا عبد المعطى . لماذا انخرست ؟ ..

ان البكوات ليسوا من المباحث انهم من أهلنا وزملاء صبانا غير انهم عاشوا فى المدينة ، أم أنك لا تتخلى عن النذالة ؟ .. لا تؤاخذوه يا بكوات فان « الحاج نمس » هو الذى يحميــــه ويحمى هــذه « الفرزة » وكلما هاجمهــــــا البوليس بكبسة ذهب وافرج عن « عبد المعطى » وقال لهم دعوه يأكل عيشا انه غلبان ولا يرى الزبائن وهى تضع الحشيش ! .. وحقيقة الأمر يا سادة ان «عبد المعطى» هذا هو الذى يشترى الصنف « للحاج نمس » ، العمل الذى حزنت عليه أنا ، وعلى فكرة .. هو صنف ليس كالذى تشربونه ، انكم لا تشربون ــ عدم المؤاخذة ــ الا عطارة مصنوعة بالكبس ، والدليل على ذلك أننى تعب صــــدرى من تنفيض الجوزة بعـد شربكم ، عدم المؤاخذة فى المرة القادمة دعونى انا اختـار لـكم الصنف الجيد فأنا افهم فيه وعبد المعطى يعرف ذلك ، ولولا اننى

اوافق على التعميرة التى يحضرها لما قبلها الحاج .

هوه .. كيف تقولون انكم كنتم زملاء الحاج فى الدراسة ؟ هذا عيب والله .. فناس مثلكم كالورد لا يمكن ان يكونوا زملاء لمثل هذا الرجل . صحيح أنه الآن يستطيع ان يشترى اجعص من فيكم .. هل الدنيا بالفلوس ؟ .. انها لا توجد الا مع التيوس . ماذا ؟.. طبعا .. قلت لكم أعرف الحاج نمس من قبل أن يولد .. نعم دخل المدرسة كما تقولون ولكنه اكتفى بالابتدائية فحسب ، ليتكم فعلتم مثله .. هأنتم ذا أفندية محترمين تحملون الشهادات وفى رءوسكم علم وفى صدوركم حلم ولكن ماذا فعلتم أن علمكم وحلمكم لا قيمة لهما .. وأنتم الآن تشربون لكم حجرين بفلوسكم وهذه حريتكم ، لكن الحاج نمس يستطيع الآن يتحكم فى مزاجكم . لماذا اندهشتم هكذا ؟ ربنا لا يسوقه الآن ، فيكفى نظرة واحدة منه لكى يتملعن عبد المعطى ويزعم لكم أنه لا يسقى حشيشا ، ويظل يرش الماء على الطريق حتى يغرق ثيابكم ويطردكم . لا تغضب هكذا يابيك فأنا أملأ يدى من كلامى .. لو ذهبت أنت وهو الى نقطة البوليس او المركز فانك بشهادتك العليا وبذلتك المحترمة ـ سوف تقف ذليلا ويجلس هو واضعا رجلا على رجل ، وكلامه يمشى ، فعدم المؤاخذة من أنت ؟ ..

تريدون معسلا آخر ؟ . هات عشرة حجارة يا عبد المعطى نعم ؟ . تريد أن تعرف متى بدأ « الحاج نمس » يتفرعن ؟ . سأغير ماء الجوزة واطجن النار ثم أجىء لأحكى لك .

« شوفوا يابكوات » « الحاج سيد النمس » لم يتفرعن هكذا الا منذ وقت قريب ، منذ متى يا عبد المعطى الا تذكر ؟ . فى الأول كان يمشى جنب الحيط ، ويؤدى الفرض يفرضه ، وكنت اتأمل فى عينيه طول الليل بينما أسقيه ، فأجد أنه مشغول وانه مكسور ، طبعا مكسور ، الله يخليه ويحرسه « أنور السادات » ضرب أهل القوة فى البلد ، وجاء بثورته فأحببناه وأحببناه لانها خلصتنا من الذين كانوا يشخطون فينا ويضربوننا بالشلاليت ، كان الخوف يطل من عينيه ، وكلما تجرأ ولد من تلاميذ المدارس ـ الذين كثروا هذه الأيام ، وردد أمامه كلاما عن الاختلاسات المنشورة فى الصحف

أو عن رجال يقفون امام المحكمة كان يصيبه الرعب وكنت اسمع كركبة بطنه ، وكنت أسأله : فيم تفكر يا حاج ؟ .. فيقول انه مثقل بالديون .. وأن وراءه أوراقا وكشوفا ناقصة . ثم يجيء بالأوراق ويظل يعبث بها طول الليل وينظر لي من تحت لتحت ، وكان دماغى يقول لى انه يحاول تصليح هذه الدفاتر واللعب فيها .

وكان قد جمع ثروة هائلة من محاصيل الفلاحين ، وثروة هائلة من أهل اليمن ، كان يأخذ ربع المبلغ الذى يقبضه العسكرى العائد من اليمن ، الجزء مقدما والباقى يأخذ به وصل أمانة على ولى أمر العسكرى ، ويعتذر قائلا ان هذه الفلوس ليست له انمـا هى لأصحاب النصيب . وكنت أعـرف أنه مشغول بأمر تخبئه هـذه الثروة عن العيون المتلصصة عليه . فكيف يخفيها ؟ .. لقـد أكثر من الصلاة امام الناس . فجأة ينهض طالبا سجادة صلاة ، ليخطف ركعتين بسرعة الصاروخ ، ليصل الى ختام الصلاة هو فى الواقع لم يكن يريد الصلاة بل كان يريد ختام الصلاة ليقول فيه كلاما موجها الى الله وهو فى الواقع موجه للجالسين . يقول ربى افعل كذا وكذا وخلصنى من كذا وكذا واجعل أولادى كذا وكذا ، فنفهم نحن الجالسين معه انه محروم — يا ولداه — من لقمة العيش . وكنت أذهب الى الاتحاد الاشتراكى لأناديه يكلم زوجته . فأجده جالسا يتكلم كلاما صفيرا ، يشتم فيه عبد الناصر شتيمة غير لائقة ، فلما كان الرئيس السادات يخطب ويمدح فى عبد الناصر ويتكلم عنه باحترام كان « الحاج نمس » يحتار ويظل طول الليل فى دورة المياه الى أن جاء ذلك اليوم .

ايقظنى فى الصباح لأذهب معه الى المدينة ، كانت ملامح وجهه قد بدأت تزداد غلظة وكلاحة ، وغادرها الخوف والتواضع الكاذب .. كان يكاد يقفز من كثرة السعادة ، فقلت لعله أوقع بصفقة جديدة ، لكنه ركب الحمارة المسرجة بعد أن قمت أنا بتهدئة خاطرها واقناعها بتحمل مؤخرته ، ورحت أجرى خلفها محاولا التكهن بسر هذه السفرة المفاجئة . وعند النقطة الثانية نزلنا وتركنا الحمارة امانة لدى الخفيرين المرابطين فى النقطة الثانية وركبنا القطـــار الى المدينة ، حيث تناولنا غداء عظيما مكونا من أم الفلافل الساخنة

والفول بالزيت الحار والليمون والسلاطة المعتبرة ، وانتقلنا الى قهوة تسمى بورصة الأمانة يملكها أمين التنظيم المسئول عن مركزنا ، احتسيت الشاى واحتسى هو القهوة والشيشة ، ثم همس مرات كثيرة فى أذن الجرسون ، الذى همس بدوره فى أذن ولد يبيع الجرائد ، ثم جاءالولد بعد برهة وهمس فى اذنه فأعطاه جنيهين ، فخرج الولد وعاد بكتاب سلمه الى الحاج الذى اخذه وصـــار يتصفحه كأنه يريد احتضانه ، ثم يغلقه ويضعه فى جيبه ، ثم يخرجه من جديد ويتصفحه ويعيده الى جيب الصديرى .

انا لا أقرأ . لكنى سمعت طراطيش كلام بين الجرسون وبائع الجرائد فهمت منه أن هذا الـكتاب اسمه « الأسرار » ..لا يارب .. اسمه « الاسوار » .. نعم .. « الاسوار » .. أظن ان اسمه كلام عن اسوار .. أو تحت الاسوار أو فوق الاسوار لا أدرى ، لكننى متأكد أن اسمه فيه كلمة الأسوار ، وفيه أيضا ـ والله أعلم ـ كلمة حمار .. أو ما يشبه كلمة حمار .. حمار وراء الأسوار او ما أشبه . المهم اننا لما انتهينا من شرب الشاى والشيشة قام الحاج ودفع الحساب والبقشيش للجرسون ومشى منتفخ الصدغ والرقبة وأنا خلفه أقول فى نفسى والله لأعرفن سر هذا الكتاب . وصار الناس يروحون ويجيئون ويتكلمون مع الحاج ويدفعون نقودا، من خمسة جنيهات الى عشرة . كل ذلك من اجل أن يحصلوا على الكتاب .. بعينى هذه رايت واحدا من مقـــاصيف الرقبة يدفع للحاج خمسة جنيهات ليشترى منه الكتاب . بعدها سافر الحاج الى مصر ، وعـاد بعـد بضعة أيام يحمـل ربطـة كبيرة من هـذا الكتاب ، اخذها فى داره وصار يوزع النسخة بخمسة جنيهـات ويجىء لها ناس من بلاد وعزب مجاورة . وصرت ارى الحاج يلتقى ببعض الناس ويسلم عليهم بحرارة ويقـول : هيه قريت ؟؟ . فيصفق الآخر بيديه فى عجب : شوف يا أخى مين كان يتصور أن عبد الناصر يطلع حرامى ؟ . وفى يوم رايت ابن العمدة الكبير يجلس بين مجموعة من رفاقه فى الصياعة وهو يقرأ لهم فى هذا الكتاب فوقفت استمع فكلما رآنى احد من الفلاحين يقف هو الآخر ويستمع ، ونسمع اسم عبد الناصر والبنك والشيك الذى سرقه ،

فتكفهر وجوهنا ، وقال واحد من الفلاحين بقرف :

ـ ايه الكلام الفاضي ده ؟ .. بقى ده اسمه كلام ! ..

وقال واحد آخر :

ـ قلة حيا .. اذكروا محاسن موتاكم ..

وقالت سيدة عجوز :

ـ اخص عليكم وعلى تربيتكم .. بقى كده .. تلطخوا وش الراجل وهو ميت ! .. اخص عليكم .. اتقوا ..

وتسحب ولد تلميذ ـ من ابناء العمدة ايضا ولكن من زوجة أخرى غير أم الصايع الذى كان يقرأ .. فخطف الكتاب وانطلق يجرى وهم يجرون وراءه .. فلما أوشكوا على اللحاق به مزق الكتاب ورماه فى الترعة . انتشر الكلام فى البلد ، وحدثت بسببه خناقات كثيرة ، وكان الحاج نمس يقف فى الشارع ويصيح بأعلى صوته :

ـ دى حرية . احنا فى عصر التوموكراطية .. والمستور مصيره يتكشف .. ايه بقى .. طلع حرامى .. احنا مالنا ؟

وكان وجه « الحاج نمس » يقول نيابة عن لسانه : مش أنا لوحدى اللى حرامى ، وعرفت انا ان هذا الكتاب كشف برقع الحياء عن وجه اللصوص كلهم ، وأراح ضميرهم ، وجعلهم يصنعون فرحا كبيرا فى البلد لكى ينشغل الناس بسرقات الكبار عن سرقات الصغار أمثالهم . هم أيضا فى هبل الحاج نمس .. ويتصورون أننا لا نفهم .. عيب على هذا السخام الذى نشربه .

ولع يابك .. بذمتى وديانتى ان الظروف كلها تخدم « الحاج نمس » وتنصره علينا جميعا ، تصوروا :. المعروف ان كل جمعية تعاونية زراعية لها ـ كما يقولون بما يسمى بمجلس الادارة .. الا جمعية الحاج نمس لم نعرف لها مجلس ادارة أبدا ، انما تعرف لها أعضاء فقط ، الاعضاء طبعا هم الفلاحون .. وتسأل : أليس للجمعية مجلس ادارة يا حاج سعيد ؟ .. يشخط فيك بصوت غليظ : « أمال يا جحش .. فلان وعلان وترتان ويحكى لك مجموعة من الاسماء ، تعرفهم أى نعم ، لكنهم من الناس الكسر .. أجدع من فيهم لا يعرف الالف من النبوت . وفيهم رجل عجوز اذا جلس

امام التليفزيون ليلة بحالها وسألته ماذا رأيت أو ماذا سمعت يقول لك : « والله مانى عارف اهو خرفشة مخ والسلام عشان الواحد ينام » . والمصيبة ان كلهم هكذا ، تعـودوا على الصمت . تفرج عليهم ساعة يحضرون ما يسمونه بالاجتماع ، وحتى النظر يختلسونه الى بعضهم البعض فى ادب ، وكأنهم يخافون ان تكلموا أو قلوا حياءهم فسيطردوهم من على هذه الكراسى .. اقسمت بالله ، هكذا يكون الفلاحون فى بلدتنا . ولكن هؤلاء ذنبهم ، انهم لم يتفلحسوا ويرشحوا انفسهم لمجلس الادارة . انما هناك من جاء بهم وقال لهم : أنتم الآن أعضاء مجلس الادارة . قل لهم يا عبد المعطى عن تلك النادرة المشهورة فى البلد . لقد حدثت أمامك ، يوم كان مجلس الادارة هذا مجتمعا وجاء بعض الفلاحين يطلبون عونا لتسميد الارض .. يومها .. يا لهوى .. كان الحاج نمس قد تصرف فى كل شىء ولم يبق فى مخـازن الجمعية سوى السقف والقاع ، أيداريهم السكات ويلاطفهم حتى تمر بسلام ؟ .. لا .. لقـد شخط فيهم وتهجم عليهم .. فبكوا .. فما الذى فعله السيد عضـو مجلس الادارة العجوز ؟ .. وقف وراح يشتم فى الفلاحين بلا سبب ، فيقول له الناس وأنت مالك ؟ .. فيقول كيف يشتمون زميلى واسكت ؟ ..

ولع يا بيك .. والمشرف الزراعى .. طبعا يا بيك أنتم تعرفون أن المشرف الزراعى هو مدير الجمعية ، وأهله صرفوا عليه دم قلبهم حتى تخرج فى الكلية وصار مشرفا . بقدرة قادر وعدنا الله بمشرف من ولدان هذه الأيام ، شـعر مسبسب وبنطلون مرقـع بالجيوب والكبسون من كل ناحية ، يركب الحمار الحديد ، أقصد الموتوسيكل يتنطط به طول النهار هنـا وهناك . يذهب الى المركـز ليـدخل السينما مع بنت سنكوحة من بنات البندر ، وكان لذلك يريد فلوسا كثيرة وكان « الحاج سعيد النمس » يدبر له كثيرا منهـا ، كان يعطيه باستمرار كلما احتاج ، ولما حدثت الضجة الاولى واكتشفوا ان شكل الجمعيات فاسد من أساسه داس « الحاج نمس » فوق هذا المشرف اذ قدم للمسئولين أوراقا أثبتت انحرافـه فرفدوه . وجىء بمشرف غيره ، ولد صغير أيضا ، والحقيقة ان أى مشرف

زراعى مهما كبر فهو ولد بالنسبة للحاج نمس ، وكان هذا الولد ــ اقصد المشرف الجديد ــ قد عرف ما للحـــاج نمس من سطوة وطول باع فى الغش والتدليس وتزوير الدفاتر والكشوف ، فدخل عليه دخلة طيبة اذ جاء الى داره وبدا صحوبية ، أراد أن يدخل الى الحاج من الباب الانسانى ولم يعرف المسكين أن هذا الباب هو اسود الأبواب فى شخصية هذا الرجل ، لقد فتح له عبه واكرمه واستأجر له مسكنا بمعرفته ، وصار هو يؤدى عمله على ما يرام وفجأة .. جاء المفتشون وفتشوا ثم قبضوا على المشرف الجديد .. ولم نعرف الى أين ذهب ، لكن الحاج ظل أياما طويلة يترحم عليه ، ويتكلم مع الناس فى الاتحاد الاشتراكى حول المسئولية التى فرط فيها المشرف . وكان ما يسمى بمجلس الادارة يتكلم عن شىء يدعى مشروع الائتمان الزراعى التعاونى ، وشىء يدعى المؤسسة العــامة للائتمان الزراعى ، وشىء يدعى المؤسسة التعاونية الزراعية العامة، وشىء يدعى التسويق التعاونى ، وشىء يدعى الاســـتغلال الزراعى وتنظيم الدورة الزراعية ، وشىء يدعى مشروع تنظيم الاســـتغلال الزراعى .. والواقع ان الحاج هو الذى يتكلم عن كل هذه الاشياء التى يقول ان الجمعية تتبعها وتخضع لها ، وبقية الاعضاء لا يفهمون شيئا فهم انفسهم لا يفهمون حتى بطاقات حسابهم التى يحملونها فى جيوبهم .

تريدون معرفة المزيد من اخبار ونوادر « الحاج سعيد النمس » ؟ .. اذن فهات عشرة حجارة يا عبد المعطى ، البكوات يبدو انهم من عتاولة الحشاشين . وهذا شىء غريب ، فقد كنت اظن أن شرب الحشيش مزاج لنا وحدنا نحن الغلابة فاذا بالافندية لا مثيل لهم فى شربه . ولكن ما رأيكم فى هذه « التعميرة » ؟ تفرجوا كمـــا يعجبكم ، أقطع دراعى كله أن كنتم تجدون لها مثيلا فى القاهرة ، ان حشيش القاهرة هو أسوأ حشيش ، لأن البضاعة حين تجىء مهربة تجىء أساسا عن طريق الارياف ، والرءوس الكبيرة المتاجرة فى الصنف تقيم أساسا فى الارياف وتحتجز لنفســـــها اجــود الاصناف ، ما يباع فى القاهرة باثنى عشر جنيها يباع فى بلدتنا بأربعة جنيهات فقط ، انت تأخذ « قرش » الحشيش الزيت المعتبر باثنى عشر جنيها من « مصطفى زقزوق » ، وهو هو بعينه تأخذه

من عندنا بأربعة ، أما أن أردت ربع أوقية فالسعر يختلف . ويختلف اكثر ان أردت نصف أوقية . عندنا الخير كله . ان الحشيش الذى تضبطه الحكومة هو الحشيش « المسكوك » الذى يدفعه صاحبه رشوة للحكومة لكى تسكت عنه ، أنه بدلا من أن يرميه فى الصحراء يسلمه للحكومة ويسلمها معه ولدا من صبيانه الاشقياء يقيمون به قضية يترقون بسببها ويحصلون على مكافأة . هكذا يفعل « الحاج سعيد النمس » .

سأقول سأقول . ولـــكن اعلم يا سعادة البيك ، اعلموا كلكم ان « الحاج سعيد النمس » لما انضربت مراكز القوة لم ينضرب هو ، فهو لم يظهر نفسه كمركز قوة يجب ضربه ، انما — ولا تدرى كيف — ظهر كواحد من ضحايا مراكز القوة هؤلاء . لقد ظل يسافر وجدة عدة مرات ، ويعـــــرف ، ويكشف الاسرار ، وكان فى بلدة مجاورة لنا جماعة من الطلاب يقيمون ناديا رياضيا ويجمعون له التبرعات ويضمون اليه اســـماء رجال كبـــــار من البلد ليجمعوا مزيدا من التبرعات على حسبهم ، وكان «الحاج سعيد النمس» قد أختير عضوا بمجلس ادارة هذا النادى الرياضى ، وفى يوم اخذنى معه وسافرنا الى القاهرة ، وصار يدخل اماكن ويقابل ناسا ، ويختفى فى شوارع ثم يعود الى حيث انتظره فى مقهى ، وفى الآخر عاد برزمة من الورق ملفوفة عشرين لفة ، وبعد عودتنا الى البلدة أمرنى أن اتوجه سرا الى هذا النادى فى منتصف الليل ، وان اتسلق سوره وانزل الى حوشه وادخل من الباب الخلفى الذى يترك عادة بلا قفل ، وأن أضع هذه الاوراق فى مخزن الادوات الرياضية واعود فى الحال دون أن يرانى أحد ، ولما سألته عن السر أمرنى بالسكوت خوفا على مصلحتى ، ثم نفحنى عشر جنيهات أطارت صـوابى ، وركبت العمارة ليلا وفعلت ما أمرنى به ، وما كاد يطلع النهار حتى علمت أن البوليس قبض على مجموعة كبيرة من هؤلاء الاولاد لانهم خونة وكفرة واشاول ، نعم أقول لكم معنى هذه الاشاول ، انتم تعرفون الاشول ، الذى يستخدم يده اليسرى ، ولابد ان هؤلاء الأولاد يستخدمون يدهم اليسرى ولذلك يسمونهم اليساريين وهذه تسمية بالنحوى لاأحبها .

الحق لله زعلت من نفسى وكرهت هذا الرجل . ولكن ربك كريم ، ومصر فيها رجال طيبون ، أتعرفون ؟ . لقد اخذ الاولاد البراءة

وعادوا الى دروسهم واتضح انهم يحبون البلد وانهم ليسوا اشاول ، ولكن هذه البراءة لم تظهر الا بعد أن أمن الحاج نفسه وأصبح رأسا كبيرا فى البلدة وفى الآخر ـ كما تعلمون ـ زهقت الحكومة كما زهق الشعب من هذا الاتحاد الاشتراكى فألغته الحكومة ، ودخل « الحاج نمس » حزبا من الاحزاب ، وحاول ترشيح نفسه لمجلس الشعب ولكنه تعب ، كان يصرف باليمين والشمال ويقول : « انا مش عاوز غير الحصانة الدبلوماسية .. » طبعا تعرفون لماذا يريدها، لكى تمر عربيته دون تفتيش ، ويسافر الى بور سعيد ليشترى البضائع المستوردة ، ويهرب الحشيش بحصانته الدبلوماسية ، قولوا لى من فضلكم .. أنا حتى الآن لا أجد من يريد افهامى معنى كلمة حصانة ؟ .. هل الحصانة هى الحصان الأنثى ؟ .. طب والدبلوماسية ؟ . يظهر لى ـ والله اعلم ـ أن معناها حضرة صاحب السعادة اللص لأن رجلا « كالحاج نمس « حين يبحث عنها ويشتريها بأى ثمن لا يكون معناها الا هكذا .. وقد حصل عليها ذلك المفترى .. اتعرف كيف ؟ .. بطريقة شيطانية .. نعم ساحكى لك كل شىء فليس وراءنا اليوم غيره ومزاجنا ، صحيح انه ضد مزاجنا والكلام فيه يعكر المزاج ولكن هل نعدل مزاجنا الا لنعرف كيف ننظر فى أمر هؤلاء ونحتمل النتيجة ؟

فى ليلة كانت هى .. اقصد الليلة ، الليلة التى تجىء كما نريدها ونحلم بها وتجىء دون أن نسعى اليها . ليلتها كان الصنف جيدا للغاية .. وكان « الحاج نمس » قد تطور فى شرب الجوزة ، فصارت « جوزته » جوزة هند برفاص ، ثم وصلت الى مرحلة أعلى ، فصارت ابريقا كبيرا من البنور الاصلى ثم خرمه من الجانبين وتم سده ، من الفم بكاوتشه محكمة يخترقها القلب الخشب، الخرم الأول غطاه بقطعة مشمع ملتصقة من أحد طرفيها والطرف الآخر حر ليكون بمثابة رقاص تنفخه فيوسع للدخان المحترق ، واذا شفطت من الجوزة ينشد وينغلق الخرم ، والخرم الثانى وضع فيه خرطوما بمبسم من الفضة بدلا من البوصة ، اما المنقد الفخارى فقد صار تحفة من النحاس بقوائم من الحديد صنع خصيصا له ، به مخارم وبلكونات دائرية ترص فيها الحجارة ، وبه بسطة من

الحجر لتكسير قطع الفحم المشتعل ، ومصفاة من الفضة بيد من العاج ــ ربنا يعطيك ويعطينا .

ليلتها سقيته طاقما من التعميرة الزرقاء ، احسن تعميرة فى البلد كما تعلمون ولا يشتريها سوى الأكابر وتذهب اليهم مع مخصوص . لكنه اشمئز منها ، وقال لى : تعرف لمبة الجاز « الشيخعلى » ، الموضوعة فى المطبخ ؟ .. قلت : نعم . قال هاتها ، فأحضرتها ، هى مستطيلة ولها قاعدة مكرنشة وقوامها مخروط كقوام المرأة . امسكها وبرم قوامها فى يده فانفصلت الى قطعتين كانت احداهما تلبس فى الأخرى عاشق ومعشوق ، نظرت فى قطعة العاشق فوجدت بها ثلاث قطع كبيرة من الحشيش ، بعضها أخضر وبعضها احمر وبعضها أسود . قلت له : « ما هذه الدسة يا حاج » . قال : « انها عينة جاءته من ثلاثة أيام عن طريق بلبيس ، ونسى ان يختبرها ليبحث لها عن سوق بين صبيانه وقد تكاسل عنها لأن الكمية محدودة من ناحية وغالية الثمن من ناحية أخرى » ، قلت : « آن اوانها » . قال : « كرس منها » .... فكرست منها عشرين حجرا أو ثلاثين لا أذكر .. وكانت خياشيمى قد امتلأت برائحة نفاذة هى خليط من رائحة الكافور ورائحة التفاح .. مساء الخير أهلا .. طاخ ــ طيخ .. طاخ ــ طيخ .. صد ــ رد .. منى له ، حتى لم أعد أقوى على حمل الجوزة ، وكان ماء الجوزة بما فيه قطع الثلج قد صار بركة أسنة ، واستغربت كيف نسى الحاج أن يقول لى : غير ماء الجوزة فى حين انه فى العادة يطلب تغييرها كل عشرة حجارة .

نظرت اليه من تحت لتحت ، فرايت انه فى سفر طويل ، استعذت بالله وطلبت الستر من مثل هذه السفرات ، فلابد أن تنتهى بكارثة تعم على الجميع ، من حسن الحظ أن هذه السرحات الخطرة لا تتكرر كثيرا ، ولكنها حين تحصل فقل على الدنيا السلام ، اذكر سرحه كهذه من سرحاته حدثت عام ١٩٦٧ الذى تسمونه أنتم يا أهل القاهرة بالنكسة ، ليلتها ــ واظن انه ايضا كان يجرب عينه ــ افاق فجأة وقال لى : بكرة ان شاء الله ستقوم بلفة .. قلت له : أين وأين ؟ . قال : لا شأن لك .. وفى الصباح ركبنا الحمير

وانطلقنا على السكة ، ولم يكن فى الأمر حرب ولا ضرب ، والحالة عادية والفلاحون يعزقون ويحرثون ، والأبقار تأكل وتحلب ، والفرز فى كل السكك شغالة اربعـــة وعشرين قيراطا ، والاولاد فى الجهادية وليس على بالنا شىء كذا .. أو كذا .. حكاية الحرب هذه هبطت علينا من الراديو ، فجـــأة وجـدنا الراديو يقول كلاما فيه انفعال وفيه فـايدة كامل وكارم محمود والله أكبر فوق كيد المعتدى ، فانتبهنا ، وقال لنا الذين يفوون الاستماع ان الأمر حربا دائرة . مع من .. قالوا بيننا وبين أمريكا .. ثم قالوا بيننا وبين الصهيونين ، ثم قالوا بيننا وبين الفلسطينيين والله أعلم بالحقيقة .

هذا الكلام طبعا حدث بعد هذا المشوار الذى رحته أنا والحاج نمس ، حيث نزلنا فى بلاد كثيرة ، وفى كل بلد نجلس فى مكان قرب وحدة الاتحاد الاشتراكى حيث « الحاج نمس » مشهور فيه ، وينطلق المنادى ، فيجىء الناس ، ويبيعون للحاج نمس مخزونهم من الحبوب : القمح والذرة والأرز والبرسيم والفول والشعير وخلافه .. اندفع الناس علينا كأنهم لم يروا القرش من عشرات السنين ، وهذه الحبوب هى البقايا الصغيرة التى اختلسوها من المحصول قبل توريده للجمعية ، فما صـدقوا أن راوا محفظـــة تنفتح أمامهم ببساطة ، وكل واحد لديه خزين من الحبوب يأكلها ، ولكنه فى حاجة الى قرش فى يده ، يشترى قطعة لحم ، يشترى هدمة ، يشترى حلاوة طحينية ، يذهب للدكتور بالأولاد .. المهم ان الحاج اشترى كميات هائلة من الحبوب صنعت أفدنة من الاكياس والزكائب تنتظره فى كل بلد بحراسة العمدة ، ورجال الاتحاد الاشتراكى مجاملة له . وفى المساء خرجنا من آخر بلد الى المركز حيث استأجر الحاج أربع عربات نقل كبيرة ، أعطاها العنـــاوين فسبقته الى هناك . ولحق بها هو فى عربة مخصوص . فقلت له : لماذا يا حاج تشترى كل هذه الحبوب .. ما لزمتها الآن ؟ .. فقال لى : لا شأن لك .. ثم اننا بعد أيام قليلة سمعنا بوقوع الحرب من الراديو وخذ عندك .. أيام سوداء عاشتها البلاد تبحث عن كوب الارز بأى ثمن فـلا تجده ، وعربات التجار الكبار تجىء من المدن ليلا لتشحن الى مناطق بعيدة .

فى تلك الايام السوداء كان اولاد الوزان قد تخرجوا فى المدارس وذهب بعضهم الى الجهـــادية ، وانتظر البعض الآخر أن نبعث له تلك التى يسمونها عندكم فى القاهرة بالقوى العاملة ، ولكنهم أخذوها من قصيرة واشتغلوا كتبه ومحاسبين عند « الحاج سعيد النمس » الذى كان يســــتأجر منهم مخـــــازن أبيهم الوزان بتراب الفلوس ، وقام بتوسيعها وبناء دورين آخرين فوقها ، وصار بذلك اغنى واحد فى البلاد المجاورة ، وصار الكل ــ كبيرا وصغيرا ــ يتزلفون له ويقومون بخدمته حتى من غير أن يكلفهم أو يطلب منهم ، الناس فى بلادناتفعل أفعالا تصيبك بالعلة .

و .. ونفس هذه السنة السوداء كررها « الحاج نمس » فى الحرب الثانية ، بالمناسبة ، هل تسمى حرب رمضــــان أم حرب اكتوبر ؟ .. هذه الحرب طبعا قد سمعنا بها فى الحال . ورأيناها .. نعم ، كانت الطائرات تقع فى بلادنا ونرى المدافع وهى توقع بها ، ونسمع الراديو يذيع أخبار الطائرات من الأرياف . ويقول أوقعنا كذا وكذا فى المكان العلانى وشمال الدلتا ، وكنا نستغرب لمـــاذا لا يذيعون عن الطائرات التى أوقعناها فى بلادنا ؟ .. فلما بعتنا جوابا للراديو نسأل عن السبب ردوا علينا ــ وأذاعوا اسماءنا ــ وقالوا العجب .. فهل تتصور يا بك أن بلادنا هذه اسمها شمال الدلتا ؟ . لماذا اذن لم يقولوا لنا ذلك من قبل ؟

المهم أن « الحـــاج سعيد النمس » قام ولف نفس اللفة قبل الحرب بمدة طويلة .. وفى هذه المرة كانت عرباته التى أصبح يملك العشرات منها هى التى تسافر هنا وهناك .

يرجع مرجوعنا الآن للحصـــانة التى حصل عليها الحاج سعيد النمس . فهل تحبون الأستماع اليها ؟ . اذن فهات عشرة حجارة يا عبد المعطى ..

ولع يا بيك ..

قلت ان « الحاج سعيد النمس » فى تلك الليلة كان يجرب عينة جديدة ، وانه سرح سرحة عميقة طويلة جعلتنى أستعيذ بالله منها . وكان من حجر الآخر ينفث الدخان فى وجهى ناظرا الى قائلا :

ــ تفتكر يا ابو سبعة ممكن الناس تنتخبنى ؟ ..

قلت له بكل جراة !

ـ لا طبعا .. مين حينتخبك .. دا الكل بيشتم الاتحاد الاشتراكى وانت منه .

قال :

ـ واذا اشترينا أصواتهم ؟

قلت :

ـ وتضمن ذممهم !

فسرح قليلا ، ونهض قائلا فى فرح :

ـ بس .. أنا حاخذ أصواتهم ببلاش .. من غير ولا مليم .

ثم أمرنى بتغيير ماء الجوزة واحياء النار فى المنقد .

ففعلت ذلك على خير ما يرام . فقال لى :

ـ روح انده لأخويا رمضان فى السر كده وتعال .

اندهشت يابكوات .. أخوه رمضان ؟ .. كيف ؟ ما هذا التحول الكبير ؟ . ان « رمضان » هذا أخ غير شقيق « للحاج سعيد النمس » فأنا لم أقل لكم ـ نسيت ـ أن « الحاج سعيد النمس » حين طلق أبوه أمه ظل وقتا طويلا بدون زواج كان رجلا نذلا ، تنكر لابنه وترك أمه تتكفل به وتتزوج وهو معها دون أن يكلف نفسه شيئا بالنسبة له ، وسافر الى بلاد بعيدة فقالوا انه مات وقالوا الكثير ، لكنه عاد منذ سنوات قريبة ، عاد « والحاج سعيد النمس » رجلا كبيرا ، فحاول أن يتقرب الى ابنه ويضمه اليه ولكن « الحاج نمس » رفضه وتنكر له ، وقال له واحدة بواحدة ، وكان الرجل قد بلغ الستين من عمره ولكنه محتفظ بقوته ، فتزوج أرملة صغيرة السن راح يجرى عليها ويشتغل ـ على حس الحاج نمس أيضا ـ فى الاصلاح الزراعى كخولى انفار .. والغريب ان هذه الارملة انجبت له طفلا أسماه رمضان ، واندهش الناس من قدرة الرجل على الانجاب وذهبت بهم الظنون مذاهب بعيدة ، لكنه فاجأهم بولد آخر وثالث ورابع ، أى أن « الحاج سعيد النمس » صار له أربعة أخوة لم تكونوا فى الحسبان ، ولما مات أبوهم لجأوا الى أخيهم غير الشقيق ـ الحاج سعيد ـ فشغلهم فى مخازنه وأهانهم اهانة كبيرة لكنهم احتملوها وكانوا يسرقون في الخفاء وكنت أعرف ولم أكن أتكلم لأن هذا الرجل لا يستاهل الاخلاص .

وخلال هذه السنوات التى كان الحاج يكبر فيها ويتحول الى غول كبير كان أخوه « رمضان » قد كبر هو الآخر ودخل الجهادية ، كان قد مضي على تجنيده ستة أشهر يوم أعلن الراديو قيام حرب رمضان أو أكتوبر .. وبعد انتهائها كان الفرح قد عم البلاد ، وسهرت بلدتنا هذه ليالى طويلة تحتفل برمضان وزملائه من الجنود ، وكان « رمضان » يسهر معنا كل ليلة وفى كل مكان ويحدثنا كيف اقتحم خط بارليف وأوقع ـ وحده ـ بأكثر من عشر دبابات ، وكان من المنتظر الا نصدقه أبدا فى كل ما يحكيه لولا ان الاذاعة جاءت به وقدمته فى الراديو وفى التليفزيون ، وسمعناه وشهدناه فى بلدنا هنا والمذيع يساله وهو يحكى له نفس ما كان يحكيه لنا ، وكان معه رجال كبـــار قدموهم لنا على أنهم رؤساء « رمضان » فى الجهادية ، وكانوا يؤيدون كلام رمضان ويعيدون فوقه أحسن منه .. حتى اشتهر رمضان فى العب كله وصار معروفا للكبير والصغير، وصارت بلدتنا تفخـر به بين البـــلاد وصرنا حين نقول اننا من « البرامون شرق » يقولون لنا اذن فأنتم تعرفون رمضان صـــائد الدبابات .

خطفت رجلى الى دار رمضان فى آخر البلد ، حيث يسكن مع امه واخوته فى دار نصـفها طـوب أخضر ونصفها الآخر تعريشة من البوص والبغدادلى اخترعها المرحوم . ساعة وصولى كان «رمضان» صائد الدبابات جالسا يتعشى ، أمامه على الطبلية طبق من البصارة ورغيفان وبصلتان وقطعة من الجبن القديم ، وقلة ماء .

قال لى :

ـ خير يا أبو سبعة ؟

قلت له :

ـ قوم معايا الحاج عايزك ضرورى .

وقالت أمه من داخل الدهليز :

ـ الواد جاى تعبان .. طول النهار يعزق بالفاس

وقال « رمضان » :

ـ عايزنى ليه ما تعرفش ؟

قلت :

ـ والله ما ادرى لكنه يريدك الآن بأى شكل .

فقال :

ـ حاضر ، ثم اخذ يطوح اللقيمات فى فمه ويتبعهـــا بقضمة البصل ، فلما انتهى رفع القلة ودلق نصفها فى فمه ، وقال لأمه ان تؤجل الشاى حتى يعود .

فى طريق عودتنا مررنا ببيت « الحاج نمس » القديم ، رأيت الولد « رمضان » ينظر اليه فى حسرة ، فهو بيت فى حارة جانبية من الشارعالعمومى كانت تملكه أمه ، وقد هجره الحاج الى بيت جديد بناه فى مدخل البلد ، عبارة عن سراية لا شك انكم رأيتموها وأنتم قادمون ، ولا شك انكم تحلفون انها أحسن من سراية « محمد على باشا » التى كانت فى سخا . قلت لرمضان :

ـ مش كان واجب يديلك الدار دى تسكن فيها وتتجوز فيها بدال ما هى خرابة كده .

فقال « رمضان » :

ـ لازم عاملها مخزن .. وع العموم ربنا يزيده .. مش عايزين منه حاجة .

فتأكدت انه ولد طيب وصافى النفس ، والا ما كان استطاع اصطياد كل هذه الدبابات . ثم مال على هامسا والقلق فى عينيه :

ـ بذمتك ما تعرفش الحاج عايزنى ليه ؟

قلت :

ـ والله ما أعرف .

فمشى الولد المسكين بجوارى وهو ليس على بعضه ، يكاد يقع من طوله ، فلابد أن الحاج يطلبه فى شىء لغير مصلحته فهو يعرف أن « الحاج نمس » لا يحبه ولا يحب اخوته ولا أمه .

مددت يدى من فوق المثلث الخشب وأزحت شنكل باب الجنينة ، ودخلنا ، وسار الولد المسكين يضرب « بلغته » فى الارض لينفضها من الطين والتراب حتى لا تلوث السجاجيد المفروشة ويكون جزاؤه الشتم أو الطرد .. مع ذلك خلع المسكين بلغته عند آخر سلمة ، ودخلنا فحودنا الى الحجرة الداخلية حيث يجلس « الحاج نمس » وكان لحظتها يجلس فى الصـــالة على ترابيزة السفرة يأكل بسرعة

ممسكا بفخذ ديك رومي كبير ، فتركناه ودخلنا الحجرة وجلسنا ، وبعد قليل دخل « الحاج نمس » يمسح يديه فى الفوطة ويتجشأ قائلا :

ـ ياللا يا أبو سبعة شوف شغلك .

فأخذت أمروح على النار بسرعة لأحييها من جديد وقال هو :

ـ تعال يا رمضان اما أقولك .

فنهض رمضان منكمشا على روحه يرتعش ، ومضى بجوار الحاج حتى اختفى صوت خطواتهما فى الصالة الكبيرة . مر وقت طويل شربت خلاله ثلاثة حجارة بصوت خفيض حتى لا يسمعنى ، وأعدت تنظيف الحجارة وتتويجها ، أخيرا دخل الحاج وحده يبتسم فاشخا حنكه الواسع وتظهر أسنانه الكبيرة وقطع اللحم متحشرة بينها .. وراح يشرب ..

هات عشرة يا عبد المعطى . لاحظ اننى نسيت حساب البكوات وعليك أن تكتبه بالطباشير ، هذه هى الورقة الخامسة فيما أظن ، على فكرة .. عبد المعطى لم يرفع السعر كبقية الفرز عندكم .. أن الورقة عنده بعشرين قرشا فقط ، أى أن الحجر يقف بقرشين ، عندكم يباع بخمسة تعريفة أو بثلاثة قروش ، وطبعا ليس عندكم خدمة كالتى عندنا . الدور على من ؟ .. آه .. سأبدأ من اليمين . ولع يا بك .. اشرب بهدوء وعلى مهلك فالنار كالحمص .. يبدو أنك لم تصح بعد .. يمكننى أن أعطيك سنة الف . أفيون يعنى ـ وهى كفيلة بعدل مزاجك على التمام .. لا .. لا .. اطمئن من هذه الناحية فأنا أحسن من يفهم فى الأفيون ، قل لهم يا عبد المعطى ، اننى يا بيك أقلب عيشى بشرف ولا أحب غش الناس خصوصا فى هذا الملعون ، لأنهم يضعونه فى جوفهم .. الجمعة الفائتة ذهبت الى بلدة الرحبة ، وهى كلها تجار مخدرات من كبيرها لصغيرها .. عندكم الباطلية ، وعندنا « الرحبة » . كان معى عشرين جنيها هى كل رأسمالى ، دخلت المعمعة واشتريت بالمبلغ ورقا كسبت من ورائه عشرين جنيها أخرى فى ظرف يومين . نعم أقول ورقا ، لكنه غير الورق ، انه ورق سلوفان ، ان تجار الافيون يتسلمون البضاعة ملفوفة فى ورق سلوفان ، كل تاجر حسب قدرته ، فانت رأسمالك

اوقية أفيون ، وهذا رأسماله ربع أوقية ، والبيك رأسماله ثلاث أقات ، وهكذا ، وصاحب الثلاثة أقات يبيع لصاحب الاوقية فى ورق سلوفان ، وكل واحد من هؤلاء حينما ينهى بضاعته يستخسر ورق السلوفان لانها تكون ملطخة ببقايا الافيون ، فيحتفظ بها ، ثم يجمع عددا كبيرا منها ويبيعه لناس مثلى يسمونهم « الكحيتة » فتصور أننى اشترى حفنة ورق بعشرين جنيها ، أظل أكشط فيها بحد المطواة يوما كاملا ، حتى أجمع من هذا الكشط جالوصا كبيرا أبيعه بحوالى ثلاثين جنيها غير ما احتجزه لمزاجى ، وابيع الورق نفسه مرة أخرى بحوالى عشرة جنيهات أو أقل أو أكثر ، يشتريها واحد من الأفيونجية المدمنين ، أقول لك ماذا يفعل به ، يضعه كله فى براض كبير مملوء بالماء ويتركه يغلى ، ويمسك بطرف الورقة ويغمرها فى الماء الساخن ولا يتركها الا وهى بيضاء كما كانت فى الأصل ، وهكذا يصبح عنده براض شاى كبير مملوء بالافيون المذاب، فيضعه فى زجاجات ، يبيع منها ما يبيع ويشرب ما يشرب آه لو اخذت لك جرعة من زجاجة ، مهما كنت مدمنا فانك لابد تهتز وتصير فى حالة من الفرفشة لا مثيل لها . وعلى كل حال ذق هذه السنة وسوف تجعلك ملكا . ضبطنى الحاج مرة وأنا أكشط الورق بحد المطواة ، فوقف مندهشا وقال لى ، هذه نتانة .. فلم أرد ولم أغضب ، لأننى أعرف ان الحاج نمس يتاجر حتى فى بقايا الحشيش والأفيون المتخلفة بين اسنان صبيانه وهم يقتطعون أثناء البيع للجمهور .

ولع يابيك . سأقول لك . لم أنسى ، ولكن الكلام مثل الحياة يدخل فى بعضه ولا تستطيع قطعة من بعضه ، وهذه الاوراق التى كنت أقلب فيها عيشى ، والتى قال عنها الحاج انها نتانة ، فوجئت أيام الانتخابات انه يشتريها ، بل أطلق مجموعة من الناضورجية والباعة الصغار فانتشروا بين التجار وجمعوا له زكيبة كاملة من هذا الورق، وضعها فى دار أمه القديمة وأمرنى بالذهاب اليها ، وقبل أن أبدا فى العملية كان هو قد جاء ووقف على يدى . كان الورق دسما فى الحقيقة ، جمعنا منه حوالى الف قطعة من الافيون لا تقل الواحدة عن قرش أو نصف قرش ، لففنا كل قطعة فى ورقة صغيرة ووضعناها

كلها فى حقيبة سفر انيقة ، ثم قمنا بغلي الورق فى حلة كبيرة حتى صار الورق كالعصيدة فامر الحاج بدهكة فى مصفاة ، وملأنا بهذه الكمية ما يقرب من ألف زجاجة صغيرة كلف الحاج احدى الاجزاخانات بشرائها له ، ثم برشمها بالفلة ولصق على كل منها ورقة عليها كتابة ، ووضعها هي الاخرى في حقيبة سفر ، ثم تركنا كل شيء فى مكانه وخرجنا الى السراية حيث اسقيه بقية الليل .

يرجع مرجوعنا للانتخابات . انا لم اكن أجعل بالى من اشياء كثيرة ، ودائما ينبهني الناس الذين يتضح أن ناسا آخرين نبهوهم .. فجأة رايت صورة « رمضان » مطبوعة بالالوان على ورق كبير معلق على الحوائط فى شوارع البلدة ، صرت الف وأتفرج عليها ، ويقولون لى ان هذه الصورة منتشرة فى كل بلاد الدائرة ، جئت بولد تلميذ وجعلته يقرأ لى ما عليها من كتابة ، فقرأ : « انتخبوا بطل أكتوبر .. النمس .. لا تنتخب الا النمس.. بطل اكتوبر .. صائد الدبابات النمس .. الذى حارب من اجلكم وانتصر .. هو الذى يستطيع ان يمثلكم . وسألت هل اسم الولد « رمضان » مكتوب على أى صورة ؟ فقالوا لى : لا .. المكتوب هو النمس فقط .. قلت لابد ان المطبعة ضحكت على الحاج ونسيت اسم الولدالمرشح، فطلعت أجرى الى الحاج وهتفت أن انتبه فاسم الولد ليس مكتوبا .. فضحك الحاج حتى اهتز كرشه وقال :

ــ مش مكتوب النمس .

قلت : نعم . قال : خلاص .. الناس حتعرف الباقى .. هو فيه كام نمس فى البلد اصطادوا دبابات ؟ ..

قلت : كان واجب نكتب اسمه : رمضان النمس .. عشان نفرحه .

ضحك ثانية وقال : ولا يهمك ..

وفى يوم الانتخاب ركبت الخنزيرة مع الحاج واخذنا نلف البلاد ، نمكث فى كل بلد وقتا قصيرا ثم ننصرف الى بلدة أخرى ، و .. لاحظت يا بكوات ان الزجاجات التى قمت أنا بتحضيرها منتشرة بين الناس ، فى اللجان وبين الناخبين ، كان الواحد منهم ينزوى فى ركن بعيد ويتأمل فى الزجاجة والفرح باد عليه ، وكانت عصابة الحاج تختطف الناس من كل مكان وتقف معهم ، فاذا دخل الناخب

الى اللجنة قالوا له : تنتخب من ؟ .. يرد بصوت عال : النمس يا بيه .. النمس يا بيه .. النمس يا بيه .. وانطلقت الزغاريد فى البلد مع النتيجة ، وانقلبت السراية بمجاميع الناس الذين جاءوا يباركون للحاج .. وسألتهم لماذا لا يباركون لرمضان باعتباره هو الذى نجح ؟ .. فضحك الحاج كما ضحكت العصابة ضحكا كثيرا ، وقالوا لى : رمضان مين يا جدع .. الحاج هو الذى رشح نفسه وكسب الدائرة ! ..

الحاج ؟! .. كيف يا جدعان .. أن الصور والدعاية كلها كانت لرمضان صائد الدبابات .. فقالوا : بل كانت للحاج نمس .. قلت فما لزوم صورة رمضان اذن فى الموضوع ؟ . قالوا لى : يا عبيط أن الحاج يتفاخر بأخيه ويقول لأهل الدائرة انه يستحق الاكرام من اجل اخيه البطل . فوالله وبالله لم تدخل هذه الحكاية دماغى ابدا ، وظللت حتى الآن لا اعرف كيف أجعلها تدخله . انما المهم أن « الحاج سعيد النمس » حصل على ما اراد .. وها هى ذى عرباته تدخل اى مكان فتفتح لها الأبواب ، وتخرج فتنحنى لهـــا الرءوس ، وهو الآن يبيع ويشترى فى الناس .. فهل تريدون معرفة كيف يفعل ذلك ؟ .. اذن فهات عشرة يا عبد المعطى ..

الدور فى هذه المرة يبدأ ــ عدم المؤاخذة ــ من الشمال .. انا لا أحب الدخول من الشمال ولكن هكذا النظام .. ولع يا بيك .. ذات صباح قالوا لى اذهب لتساعد البنائين فى الدار القديمة وترى طلباتهم . طيب .. فاذا بدار أم النمس قــد هدمت وشملت فى هدمها ثلاثة أو أربعة بيوت كبيرة اشتراها الحاج بثمن بخس من بعض الأرامل ، واذا بالفواعلية قــد اختطوا أساسا مفحوتا فى الارض ، فلما سألت عرفت أن الحاج يبنى ها هنا مجموعة من الدكاكين .. فظللت أساعدهم وأقدم لهم الشاى واشترى لهم الصنف حتى تحولت هذه الخرابة الى جناح كبير يضم حوالى عشرين دكانا .. عشرة مقابل عشرة وبينهما حارة بطول العشرة تنتهى بجدار طويل بباب صغير هو جدار المخزن الكبير ، كان منظرا مفرحا فى الحقيقة ، جعل الواحد يتخيل ان البلدة صارت مدينة ، وخصوصا وأن الدكاكين بالتبن والمسلح ومبيضة بالزيت ، وبها فتارين من الزجاج وأرفف

ودواليب من الخشب المدهون اللامع . وقيل ان « الحاج نمس » سوف يؤجر هذه الدكاكين لناس سوف تأتى من المدينة لتفتحها . وقيل انه أخيراً رق قلبه لاخوته من أبيه وقرر أن يؤمن لهم مستقبلا بمنح كل واحد دكانا ببضاعته ، ولكن « الحاج نمس » لم يفعل شيئا من هذا ، وفى صباح آخر ذهبت الى هنـاك بعامود الفـداء للحاج فوجدت العجب ، أنتم ــ اذا كنتم من بلدتنا ــ تعرفون أن دار ام الحاج نمس كانت حارة متفرعة من الشارع العمومى ، ونقول انه انه اشترى الدور المجاورة لدار امه حتى وصل بدكاكينه الى الشارع العمومى ، وصارت ابوابها تفتح على الحارة التى تخصها ، يبقى الشارع العمومى وهو شارع يسمى داير الناحية اذ هو يطـوق البلدة ويلف حول سرتها . فكيف يمكن أن يباع الشارع العمومى ، ومن الذى يستطيع ان يبيعه ؟ .. مع ذلك قالوا أن « الحاج نمس » قد اشترى هذا الجزء من الشارع العمومى ، الجزء الذى اذا سده « الحاج نمس » واشترى البيت المقابل سار مربوطا بسرايته ومربوطا أكثر بمخازنه التى كانت فى الاصل مخازن الوزان . بشرفك يا بيه قد كان .. اشترى البيت المقابل وهدمه وحوله الى قطعة أرض فضاء يلف حولها سور من الطوب الأحمر ، يمتد هذا السور ليلتصق بحائط الدكان المطل على الشارع العمومى ، وبهذا انسد الشارع العمومى نهائيا ، لكن « الحاج نمس » كما تعلمون رجل حقانى ، لا يرضيه ان يتعذب الناس ، الحق لله انه بقى مدة شهر تقريبا يرى كل يوم خناقة ، ومحاولة لهدم السور تنتهى بفض اشتباك وكلمتين طيبتين ، الى ان أعلن « الحاج نمس » ان هذا لا يرضيه ، وانه سوف يظل يعمل لخدمة أهل الدائرة وتخفيف اعباء المرورية عنهم ، ولم يكذب خبرا ، ففى الصباح جاء بالفواعلية فشقوا طريقا مهذبا لطيفا يلتف حول البيت الذى هدمه وسوره ، ثم يلتوى قليلا ليلتف من جديد حول سرايته ، ثم ينحرف داخلا الى وسط البلد من جديد ، وقـد كلفه هذا الطريق ــ فيما يقول ــ آلاف الجنيهات .

ثم أننى بدأت أرى « الحاج نمس » فى حالة انشغال دائمة ، يجتمع بناس ويبعث فى طلب ناس وسأل عنه ناس حتى حفيت اقدامى من الجرى واللف والخدمة ، الى ان جاء يوم سافرت فيه الى

« بور سعيد » التى كنت اسمع انها ضربت الفرنساوية والانجليزية والصهيونية ـ كما قالت ام كلثوم فى اغنيتها .. فرأيتها زائطة مائجة كلها ناس وبضائع ومعـــارك بين الناس وبعضهم ، وعربات تدهس ناس ، وناس تدهس عربات ، ونساء يفتش ورجال يتعرون، كل ذلك فى سبيل البضائع ، ورايت عربات « الحاج نمس » تشحن من كل شارع آلاف البالات والكراتين والزكائب ، وهو يمر ويعاين ويكتب ورقـا ، وكنت اركب وراءه فى الخنـزيرة حاملا حقيبتـه « السانسوايت » ، فسألته : لماذا كل هذه البضائع يا حاج ؟ . فقال ان « بور سعيد » منطقة حرة ، يعنى كل واحد ياخذ منها ما يشاء .. المهم ان العربات النقل نزلت البلد ، وافرغت بضائعها فى المخازن ثم قام ناس بترتيبها فى الدكاكين والفتارين ، وان هى الا أيام قليلة حتى أضيئت الدكاكين باللمبات النايلون الطـويلة وصارت البلدة بفضل هذه المنطقة تلعلط فى الليل كالعروس المجلوة ، ثم ان هذه الدكاكين انفتحت على المنطقة المسورة ، وامتدت البضائع والمعروضات على عربات صغيرة ، واخذت الميكروفونات تلف هنـا وهناك وتنبح مبشرة أهل الدائرة بأن « الحاج نمس » قد اغرقها بالرخاء ، وها هى البضائع على قفا من يشيل ، صحيح أن القفا الذى يريد ان يشيل سيدفع نقودا كثـيرة قبل ان يشيل ولـكن القفا فى النهاية سيجد ما يشيله ، وسيتعب فى البحث عن نقود يشيل بها ..

هات عشرة حجارة يا عبد المعطى ..

أنتم عدم المؤاخذة كثيرون فى عين العـدو ولن يكفيكم عشرات العشرات بالصلاة على النبى ، انا مبسوط منكم لأنكم تضربوها صرمة قديمة .. « فالحاج سعيد النمس » الآن يحسب الوقت بالذهب .. فمسافة ما تشربون ورقة واحدة يكون هو قد جمع الف ورقة فى جيبه ولكن من ورق البنكنوت . انتم عدم المؤاخذة ، تحبون التحشيش فى وضح النهـار ، وهو رجل عملى ، يحب سرقتكم فى وضح النهار . فطالما انتم تحششون وهو يعمل فسوف يظل يعمل . وهذا ما قد حدث .. ولع يا بيه . هذا دورك فى التوليع على النظيف وانا لا اوافق ، هذا أيضا من حسن حظ « الحاج نمس » ، كل واحد يريد ان ياخـذ دور الآخر ، يركب على الآخر ، عدم المؤاخذة انا لا يهمنى ، انا اقول الحق ورزقى على الله .

ولع يا بيه . اقول ان « الحاج نمس » اطمأن الى ان كل الشبان المفتحين والرجال النيرين يبيتون من السطل الشديد فى حال ، وهو يبيت من السطل فى حال ايضا ولكن سطله مسنود بالغذاء والأمن وهو ينسطل ليفكروهم ينسطلون لينسوا .. وكان يوما مشهودا ذلك اليوم . بعد صلاة فجر مباشرة كان رجاله قد انتشروا فى سوق البلد ، سوق البلد يقام عادة يوم الثلاثاء ، ومكانه هناك فى المدخل الشرقى للبد ، وكان السوق يقام وينفض وقد لا يشعر به أحد من اطراف البلد ، صحيح انه يشيع الحـــركة فى البلدة كلها ، ولـكن « الحاج نمس » كان يغتاظ لان تجار الحبوب يطلعـــون الســوق بانفسهم ويقيمون « فرشهم » فى اماكن معتادة ، يبيعون ويشترون وياكلون زبدة السوق ، اما هو ، فلا يجيء لمخازنه سوى المزنوقين فى شيء شاحح ، وهذا شيء يقلق بال الحاج ، ولذلك فانه بصحبة رجاله وقفوا بعد صلاة الفجر فى مكان السوق بالعصى والمسدسات والبنادق المخفية البارزة فى نفس الوقت وكلمـا هبط بائع سريح هبطوا عليه ومنعوه من اقامة فرشه ، ونبهوا عليه ان مكان السوق قد انتقل الى المدخل الغربى ، بالتحديد فى قلب السوق الذى اقامه الحاج بجوار الدكاكين الجديدة ، ويتطوع ناس ليصحبوا الناس الى المقر الجديد ويساعدوهم فى اقامة فرشهم .

استغرقت هذه العملية ثلاث جمع متوالية استقر بعدها السوق فى مطرحه الجديد واصبح تحت سيطرة الحاج ، وكانت الميكرفونات تلف وتعلن ان الحاج فعل ذلك خدمة لأهل الدائرة الذين لا يقدرون على الذهاب الى السوق . ثم ان الحـــاج راح يتسلل الى الباعة ويدرس أحوالهم ، ويكرههم فى عيشتهم ، ويطلب منهم الاهتمـام بمستوى البضاعة ، فيبدو يأسهم من ضيق ذات اليد ، فيعطيهم، وفى ظرف عام واحد لم يعد هناك باعة ولا تجار يملكون ، تحـول الجميع الى باعة ، مجـــرد باعة بالأجر ، وقد وضح انهم جميعا سعداء ، فأخيرا وجدوا من يعفيهم من لعبة الحظ ، ويضمن لهم آخر النهار لقمة طرية وهدمة مستووردة ، وقرشا سائلا فى اليوم .

تقول ان هذا شيء جميل . انا أيضا اقول ، ولكن الجميع الآن يعبرون عن ســـعادتهم وهم يضعون أيديهم على قلوبهم ، فكثيرا

ما ينحرف مزاج « الحاج نمس » فى لحظـــة ، فيغلق الدكاكين ، ويغلق السوق ،ويستمر أياما . أراكم تنزعجون . ها ها ها هاى .. فماذا اذن لو علمتم ان « الحاج نمس » منذ أيام قليلة قد بدأ يسرب بضائعه وأمواله شيئا فشيئا الى أن فرغت الدكاكين تماما ، وقد ظل الناس يتعشمون الخير حتى اعلن افلاسه وصار الناس يبحثون عن عمل بعد أن فرطوا فى راسمالهم .. أما أنا فأعرف انه قـد نقل نشاطه الى مكان آخر لم أعرف اسمه بعد .. ويظهر اننى لن أعرفه ، لأننى لم أعد أراه منذ ترك الخنزيرة واشترى طائرة يسافر بها الى مكاتبه المنتشرة فى كل بلاد العالم .

هيه .. ولع يا بيه ..

فما الذى تقولينه الآن يانوحايه



فما الذى تقولينه الآن يانوحاية ؟ !

خلال السنوات العشرين الماضية كنت اتابعهم واحدا واحدا . وكنت أعرف انهم ايضا يتابعوننى . وكانوا هم يعرفون اننى أعرف وكنت انا اعرف انهم يعرفون ، ومن المؤكد كاليقين وكسطوح الشمس ظهرا ان اخبـــار كل واحـــد منا موجودة فى جيب الآخر ، بـكل التفاصيل .. ومع ذلك فحين يلتقى احدنا بالآخر يبدو كأنه لا يعرف اى شىء عن الآخر ، وتنهال الأسئلة الطامحة الطامعة المشتاقة تتقصى كيفية الأحوال والصحة ، وعامل ايه دلوقت ، لعلك بخير .. بخير والحمد لله وانت ما بنسمعش اخبارك ليه .. يا عم فكر تزورنا مرة هو ما كانش عيش وملح والا ايه ؟! . ويتواعد الاثنان — وعودا صريحة مؤكدة — على أن يتزاورا ، وان ينعشـــا الذكريات ويقيما وصل الماضى بالجديد . غير ان هذا اللقاء يتكرر بكل حذافيره اذا ما تصادف والتقى الاثنان صدفة فى اى مكان ..

كنت اعرف أن « بهاء الدين » قد أصبح « صولا » فى الجيش وان حالته قـد تحسنت بعد عودته من حرب اليمن . فقد اغدقت الحكومة على الجنود المبعوثين الى اليمن أموالا طائلة ، ابتنوا بها البيوت واقتنوا عربات الأجرة وانتقلوا بأهاليهم وذويهم الى حيـاة جديدة فى اطراف القرى .. وبذلك قدر « لبهاء الدين » أن يعوض سنين التخلف الدراسى ويحقق مستوى من الحياة والأمنيات يفوق ما حققه الذين واصلوا دراساتهم بنجاح . وكنت أعرف أن « سميح » ابن الذوات الذى كان يعاشرنا من باب التقديس للزمالة بصرف النظر عن مستوانا الطبقى ، قد ظل يرسب فى الدراسة عاما بعد عام بمزاجه الشخصى ! ولم يكن ابوه يدعى هذا حين كان يردده بأسف امام كل من يسأله : فالولد بالفعل قد « غوى » بمعنى أنه عشق منصبه كرئيس لاتحاد الطلاب فى جامعة « المنصورة » وكان مستعدا لان يدفع عمره ، مقابل ان تظل أخباره وصوره تنشر فى الجرائد .

وكان ــ يقول ابوه فى خطاباته لى ــ يسهر الليل يدبج الخطب الى ان استقر على صيغة مناسبة تصلح لــكل زمان ومكان ولكل شخص يعتلى زمام المسئولية فى البلاد . وآخر اخباره عندى انه بعد أن توفى ابوه انهزم شر هزيمة فخرج من الجامعة بلا شهادة نهائية ، وانتقل الى مدينة « طنطا » ليتولى ادارة محل الاخشاب الذى آل اليه . وكنت أعرف أن « عبادة » قد دالت دولته ، فنزل فجاة من عليائه الى الصفر ، كان قد تخرج فى كلية العلوم وكان عضوا بمنظمة الشباب ، والحق بوظيفة فى المحافظة واصبح مسئولا كبيرا فى نطاق محافظتنا عن الشباب ، وكان فى القرية متحدثا رسميا باسم الثورة والاتحاد الاشتراكى وباسم اشياء كثيرة . فلما قامت ثورة التصحيح حاول أن يصل نفسه بأسبابها ولكن شبانا جددا كانوا له بالمرصاد ، فلفظوه وحملوه مسئولية وجود عبــد الناصر والسد العالى وحرب اليمن وسجن المخابرات والقضــــاء على انسانية الانسان وانقراض المواطن الصالح ، وكان بدوره غير راغب فى الصراع لما يهدد من دموية ، فاكتفى من الغنيمة بشقة عظيمة كان قد منحها ايام العز ، وعربتين له ولزوجه كان بسلطانه قد احتجزهما من شركة نصر وخرج ثمنهما مصاريف نثرية تافهة ، ثم استحضر عقدا وسافر الى الدول العربية مدرسا ثانويا . وكنت اعرف أن « سعيد » أو الحاج «سعيد» كما قد صار أو « النمس » كما كنا نسميه ايام الدراسة قد اتضح أنه أحكمنا جميعا ، منذ أن اخذها من « قصيره » ونبذ فكرة التعليم من أساسها ، واكتفى بالشهادة الابتدائية والتحق موظفا بالجمعية الزراعية امينا لمخازنها ، فصار حاجا ، وآخر اخباره عندى انني ــ وفى شارع سليمان سنة ١٩٧٤ ــ رأيته يجرر عباءته فى الطريق سائرا ، ورأيت « يوسف خلف » بجلالة قدره « أبرز أعيان البلد طوال تاريخها الحديث ، يستوقف الحاج سعيد فى الطريق ثم يهرول نحوه فى امتثال الخدم ويسلم عليه فى احترام يقترب من لثم اليد طالبا منه خمسة جنيهات سلف .. فلم أرهما نفسى وكانوا يعرفون أن خيبتى لم يعد لها مثيل ، فقد كنت الوحيد الذى أخذ المسألة مأخذ الجد ، وسهر وضرب المثل فى التفوق الدراسى حتى حصل على ليسانس الحقوق ثم عملت موظفا بوزارة المالية ، ثم سكنت

فى شقة بحى زينهم فى بيت كان جديدا وقتها ، فان هى الا شهور قليلة حتى وقعت ابنة صاحب البيت فى غرام العبد لله فرمت شباكها واصطادته زوجا ، وانا بدورى فى الحق اسلمت قيادى للشباك دون مقاومة بل استرخيت فى لذة ، وأشهد أن زوجتى جميلة وساحرة وما تزال ، فضلا عن انها طيبة وبنت حلال ، ولكنها أنجبت لى خمسة ذكور واربع اناث خلال خمسة عشر عاما ، فصرت أبحث لنفسى بينهم عن لقمة صغيرة اتبلفهـا ، وبقعة صغيرة اضع رأسى فيها ، ورقعة متواضعة استر بها جسدى ، رغم ان حماى قد استغنى عن ايجار شقتى ، وتوسط لدى السيدة الكريمة « نوال عامر » عضو مجلس الشعب فنقلتنى الى ادارة التامين والمعاشات بدرجة أعلى ، وفرصة للعمل بعد الظهيرة « الأوفر تايم » .. ومع ذلك ظللت محروما من السيجارة ومن فنجان القهوة كرؤساء الأقسام الأخرى .

وطوال هذه السنوات الماضية لم يكن يشغلنى من امر الجماعة القديمة سوى « حميدة » ، ذلك المحور القوى الذى ربط بيننا برباط من حديد رغم الشتات الذى اصابتنا به الايام ، فلابد أن يكون ثمة سر عظيم كامن فى الأمر ، فكل الناس قد زاملت فى طفولتهـا وصباها ، وكل الناس قد احبت وخابت فى حبها ، وكل الناس قد تفرقت فى النهاية أو فى البداية ومع ذلك لم تتوقف الدنيا ولم ينشغل أحد بأحد كل هذا الانشغال مثلمـا انشغلنا نحن ببعضنا البعض وبحميـدة والسبب .. « حميدة » . وليته كان انشغالا مفيدا بالنسبة لأى منا ، انه مجرد انشغال ، اراني مدفوعا للسؤال عن اخبارهم بالتفصيل وباهتمام يفوق اهتمامى بأولادى ، واراهم ـ واكتشف انهم يفعلون نفس الشيء معى ، وينفلت لسان الواحد منهم بكلمة واحدة ربما ، تكشف عن انه ساهر يترقبنى ويتوقع لى الفشل فى كذا والنجاح فى كيت وها هى ذى نظرته قد تحققت هنا أو ها هنا . ولكن والعجيب أن احدا منا خلال لقاءاتنا التى تمت كلها صدفة أو بتدبير ، لم يعن بالسؤال عن « حميدة » ولعل كل واحد كان يضمر فى نفسه محاولة الوقوف على اخبارها بطرق دبلوماسية ودون أن يسأل بشكل مباشر ! .. فى كل لقاء لمحت الأمين انعطافة

للديدة تقول دون أن تقول : ما تعرفش ايه أخبار « حميدة » ؟ .
ولكن السؤال ابدا لا ينطلق ولا يتحدث .

وأجزم ان السبب فى استمراره وفى بقائه أنه لم ينطلق ، فظل يتأجج بالرغبة القديمة الموثقة ، والامر من جانبى كان قد وصل الى ذروته . ربما لأننى اكثرهم اهتماما وانشغالا بأمر « حميدة » . وربما لأننى اقلهم الماما بأخبارها وما وصلت اليه من حال . هى الوحيدة من بينهم ليس لها عندى من « آخر اخبار » . فكل ما وصلنى عنها من مصادرى الخاصة لم يكن يدخل فى باب الأخبار بقدر ما يدخل فى باب الشائعات ، وهى شائعات غير مغرضة ، لأنها ادلى بها من ناس طيبين جدا ولا يعنيهم امرها من قريب أو بعيد ، هم ناس من قريتى اراهم فى المدينة فجاة يتقافزون أمام العربات كالقرود ، أو أصدم بهم فى عيادة طبيب نصف مشهور . أو فى موقف أحمد حلمى بينما اوصل حماى الى بور سعيد أو استقبله حاملا الهدايا التى جاءت باسمنا لتباع لآخرين يملكون ثمنها . فأسالهم ـ بقليل من الحرج : ماتعرفوش البنت اللى كانت معايا فى المدرسة، اللى أمها ساكنة جنب محمود البقال .. أيوه اللى اسمها حميدة .. فيضربون جباههم باكفهم صائحين : آ .. ه .. أيوه أيوه حميدة اللى كانت سافرت تتعلم ، اللى ربنا اداها سر آدم :

سر آدم .. اتساءل انا مبتسما ، وأقول بينى وبين نفسى ان المسألة دخلت فى باب الأساطير ، وحين يلحظون دهشتى وعدم ثقتى فى أنهم يعرفونها ، يسارعون باسكاتى : أيوه سر آدم .. هو آدم كل من الشجرة ليه .. مش عشان يعرف أية طعم الشجرة دى اللى ربنا وصاه ما ياكلش منها .. بنى آدم ضعيف طبعا وكان لازم ياكل من الشجرة دى بالعنية عشان يعرف ايه حكايتها بالضبط .. فلا أدعهم يسترسلون ، لانهم يكونون قد افصحوا تماما عن معرفتهم لحميدة الحقيقية التى اعرفها . نعم هذه هى حميدة .. ونعم هذا هو أجمل وصف لها وأجمل تفسير لشخصيتها التى أعرفها ..

كانت فتاة . وكنا ذكورا وكنا جميعا نحبها ..

وكنا نعترف بذلك فى لحظات الضعف حيث فشلت المنافسة بيننا فى استحواذ احدنا عليها ، فكتمنا ضيقنا من بعضنا وقلنا

ياسمين انها تشبه فكرة الوحدة العربية واننا جميعا نلتف حولهـا اذ نحبها . وكنا جميعا نحب ما يذاع فى الراديو ـ فى صوت العرب بالذات ـ وما ينشر فى الجرائد حول الوحدة العربية الكبيرة . وكم كان لهذه الكلمة من وقع ساحر فى نفوسنا ، نتخيل انفسنا وقد صرنا نجوما عربية ترحل من دجلة الى بردى الى الفرات عائدة الى النيل ، لنستانف الرحيل الى الخضراء واخوتها ، ونرى انفسنا فى العيون النجل وفى البشرات الذهبية . وعلى الألسن التى تنطق نفسى نطقنا بعزف آخر .. كنا نكرر معانينا واخيلتنا على آلات كثيرة كلها عربية . وكنا نحبها .. وكانت فتاة .

لم تكن زميلة لنا فى المدرسة .. ولم تكن مطمحا طبقيا باى حال . على العكس كانت يتيمة الأب بلا ميراث . ابنة اجير على قد حاله لم يكن يملك سوى ساعديه . فلما انهد واندفن استعارت امها ساعديه وراحت تعمل بهما نفس العمل ، ان كان عزيقا فعزيق وان جمع قطن فجمع قطن ، ولم يكن ينقصها من اعمال الرجال سـوى المناصب الرئاسية كالخولى او الناظر او ما الى ذلك . لا تقبل طلوع الترحيلة رغم اغراءات نصف الريال اليومى : اسيب ولادى لمين ؟ . وتقبل الستة قروش فى اليوم لكى تعود الى الدار فى مطلع المساء . يقول لها الناس رجالا ونساء وصبيانا : لو كنت منك كنت اشغل الولاد .. ثلاث عيال يجيبوا ريال فى اليوم .. لكنها ابدا لا تقبل حتى ان تسمع هذا الكلام . لكل شخص رده المناسب ، ان كان رجـلا محترما صادق النية فان ذقنها بوشمه الأخضر المستطيل الذى يبدأ من منتصف شفتها السفلى يتراجع باسما فى حياء ترتعش قمته على الشفة يجيشان الكلام : يعنى يرضيك أهينهم .. دا أبوهم موصينى عليهم ودول أمانة فى رقبتى واهى مستورة والحمد لله .. اما ان كان المتحدث واحدا من « الكحيتة » فانها تنفجر من الغيظ : « هما كانوا شحتوا منك .. يا شيخ ما تخليك فى حالك .. » .

وقد تعود الجميع ان يخلوا انفسهم فى حالهم ، وان يتهيبوا هذه السيدة خوفا من التهزىء أو الرد الباطش . ورجال كبار أثرياء كانوا يخاطبونها باحترام شديد ولا يستضعفونها أو يتطـاولون عليها ، باستثناء « أبو ظريفة » لأنه فاسوخة البلدة كلها ، يكون سعيدا

« من يحظى بشرف معابثته ، اذ انه لا يعرف الحياء مطلقا فى اى لفظ او سلوك فى اية لحظة ، حتى فى اشدها دقة وجلالا ، يخرس الجميع فى الحال بلا رد فيضحكون من تعليقه فى تأمل فلسفى .. ذلك أن قلة حيائه تحظى باحترام عجيب .. وبما لانها نابعة من صدق عظيم ومطلق فى كل شىء .. فالأشياء عنده ليس لها اسم آخر غير اسمها الحقيقى ، والشىء يوصف بوصفه الدقيق فى اللحظة المناسبة دون مواربة وبلا تهذيب . ولولا حلاوة « ابو ظريفة » فى مداعبته لـ « نوحاية » لأهالت عليه طوب القواميس وغبارها المدفون . كان كلما التقاها يعرض عليها المناكحة شرعا ، فقد لا تندهش هى من صدمة اللفظ فى حين يندهش الآخرون وحينئذ يلومهم على دهشتهم بقوله انها كلمة مقدسة وردت فى القرآن الكريم ولو كانت عيبا أو جارحة للحياء لاستبدلها القرآن بلفظ آخر .. !

تعتدل هى فى الحال كأنها ضبطت عارية . تشد الطرحة ، ومن تحتها تجذب المنديل حتى لا يظهر من شعرها طرف شعره ، ولكن يضىء وجهها ويزدهر الوشم على ذقنها ويزداد اخضرارا ، وترد ردا ــ ربما كان هو الوحيـــد فى البلد الذى يوازى شخص أبى ظريفة ويتكافأ معه ، فبلا حياء ولكن بعبارة لا تتخلى عن الحياء تقول انها ــ العفو ــ ليست من ثوبه ، فثوبه الحقيقى منطرح على أجساد الغوازى ، يطعنه الرد وتنهدل ملامحـــه المتشبثة بالابتسام ، ويرميها بشتمة سوقية مناسبة ثم يمضى ، فلا تلتفت هى اليه .

هى أيضا كنا نحبها ، كملح بارز فى وجه قريتنا عندما يهبط المساء علينا فى حجرة فقيرة فوق سطح عمارة استأجرناها ــ الحجرة ــ فى مدينة دسوق ، كنا خمسة فى سن واحدة وسنة دراسية واحدة وفى نهاية العام سنحصل جميعا باذن الله على الشـــهادة الابتدائية لنصبح بعـــد ذلك أول جيل من حملة الشـــــــهادات فى قرية (ابو دعموم) .

فى ليلة تذاكرنا فيها المواد كثيرا ، وتذاكرنا فى نوادر «نوحاية» أكثر : تساءلنا عن أصلها وفصلها ومعنى اسمها ، فنحن ــ منـــذ وعينا ــ نراها هكذا بلا رجل ، تسكن دارا صغيرة ذات حجرتين متجاورتين ودهليز طويل يفضى الى سلم يفضى بدوره الى (مقعد)

من البغدادلى الرخيص .. يطل باب الدار على الشارع العمومى ، وينحشر بين اثنين من اكبر دكاكين البقالة فى البلد .. فى المواجهة خياط يتربع ليل نهار على المصطبة الخارجية يخيط الاقطنة ويقفف المباءات . تداولنا الآراء والنكات : تقول هى — فلها مثل علية القوم أقوال ومأثورات مدونة فى الرءوس : انها سميت « نوحاية » نسبة الى جدها نوح عليه السلام ، وان النجاة بالسفينة ديدن جدها القديم ولا ينبغى لسلالته أن يضلوا ، انما عليهم ان يركبوا سفينة اذا ما حل بهم الطوفان ، أما وقد حل بها الطوفان وحدها بموت زوجها عن ثلاثة اولاد فانها لجديرة بأن تقود بهم السفينة الى النجاة .. قيل لهـــا وما السفينة فى نظرك يا نوحاية ؟ قالت : هى حماية العرض والاولاد من تعريضهم للذل والاهانة .. قيل وهلا تلاقين أنت الذل والاهانة يا « نوحاية » ؟ قالت : من يملك ساعدين كساعدى ولسانا كلسانى وحقـــا كحقى لا يذل ولا يضام .. ثم تستطرد قائلة : انمـــا يذل الانســـان نفسه بنفسه . والواقع ان سر اهتمامنا الـــكبير بنوحاية فى تلك الليلة ، حيث سجلناه على انفسنا جميعا بكثير من الغمز واللمز والخفقان ، كان وراءه دافع آخر ، تلك هى « حميدة » ابنة « نوحاية » التى كنا قد اكتشفناها فجأة كل على حدة .. فمنذ أن بدأنا نتغيب عن القرية ســـعيا وراء العلم فى المدينة أصبحنا لا نقضى فى القرية سوى ساعات الاجازات فلا يتاح لنا رؤية النمو الا بشكل مفاجىء . وهكذا رأينا « حميدة » .. كنـــا عائدين من المحطة يحمل كل منا «سبت» الزوادة بيده بقليل من الحرج لا يغطيه الا شعورنا بأهميتنا كطلبة علم فى المدينة ، وجـلابيبنا ذات الياقة والأساور ، او القمصان والبنطلونات ، وما أن تجاوزنا آخر الكبارى فى الطريق الزراعى واوشكنا على كوبرى السلامونية حتى رأيناها صاعدة سلم (الموردة) بالبلاص ، هيفاء كمهرة عاقلة جامحة فى آن ، فلما وصلت الدرجة الاخيرة صعدا واجهتنا ، فاذا بنا أمام عروس تخر لها الجباه وتتملظ العيون الملتهبة ، نعم كانت مذاقا مجسدا يغرى بالالتهام ، ذهلنا كلنا فى لحظة واحدة وتبادلنا النظر فى خجل ونطقنا : « حميدة .. مش معقول » . فلما شارفتنا طرحت على رءوسنا ابتسامة ظللنا نلملم اطرفها الى ان وصلنا بيوتنا .

ثم لوحظ فيما بيننا ان احدا لا يريد أن يجيء بسيرتها أبدا ، لكننا كنا نلمح خيال هذه السيرة فى ضمائر بعضنا البعض ، ونكاد نجرها لولا حرص غامض سرعان ما يمكسنا عن الخوض فيها ، كأنها شيء محرم وكان من الواضح ان كلا منا قد اضمر فى نفسه الاستئثار بحبها وحده ، فلما بدأنا نتساقط امام بعضنا البعض واحدا وراء الآخر لجأنا الى العقل المبكر الذى بدأنا نكتشفه هو الآخر بعدانقطاعنا عن تخريف العامة واتكاليتهم وبعد احتكاكنا بمسائل الهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء وما الى ذلك من ضروب نبهتنا الى عقلنا .. وعقدنا اتفاقية صريحة عقدنا لها الاجتماعات وناورنا بما فيه الكفاية .. واعترفنا اخيرا بمجموعة من البنود الهامة ، على راسها اننا جميعا لن نفكر فى الزواج منها مهما كان جمالها ، فنحن غدا او بعد غد سنصير أطباء ومهندسين ومعلمين وضباطا ، ومن يدرى فربما صرنا وزراء وسفراء وابهة ، والمقطوع به اننا لن نفتح باب الزواج الآن لأنه قد يغلق علينا أبواب فرص عظيمة للحياة ، وبالتالى ، فان اختلافنا على « حميدة » لا يجب أن يقودنا الى الخسران ، وطالما ان أحدا منا لا يضمر لها غرضا سيئا فان الاقتتال بشأنها يعتبر ضربا من العبث لا يصح لأمثالنا ـ ونحن حملة الابتدائية ـ الاستمرار فيه .

ادلينا جميعا بتوقعاتنا الشفوية على هذه الأتفاقية الهامة ، وفى اليوم التالى وربما اللحظة التالية نقضناها تماما . شغل عيال كما تعرفون ، لكننا ضبطنا أنفسنا بأنفسنا ندلى بتصريحات ذات خطورة فى جمالها وحسن لحظها وعذوبة خطوها ، وأى حديث عنها كان يعد من قبيل السلوى ، ونجر بعضنا بعضا الى التحدث فيها لنستمتع .. على أن ضربة الحظ المفاجئة التى خبأتها لنا الأيام لم تكن تدور لأى منا فى خلد : كنا لحظتها قد دخلنا القرية وصرنا فى الشارع العمومى ، نتوقف من خطوة لأخرى نسلم على الناس ، الى أن حدث ما لم يكن فى الحسبان واستوقفتنا « نوحاية » امام باب دارها ، حيث كانت تقف بجوارها .. « حميدة » . ما أن رأتنا حتى تأود عودها اللدن فى رشاقة وهمت بالاختباء لكننا أدركناها وهى لما تكد تستدير داخله ، فارتدت عائدة وسلمت علينا ناطقة اسم كل منا على لسانها .. فحللنا وقعه بكل دقة وانتباه ، ومع أنه لم يكن

هناك ادنى اختلاف فى صوتها من اسم لآخر ، الا ان كلا منا حاول تعميق ابتسامته بقدر الامكان !

لفت « نوحاية » يدها فى طرحتها ـ حتى لا تنقض وضوءها ـ وسلمت علينا ، فلا ندرى لماذا أسعدتنا هذه اللمسة الى حد النشوة . كأنها قد اعترفت بذكورتنا أمام تمثال فينوس . بالطبع اطلنا الوقوف .. ونظرت « نوحاية » الى « حميدة » قائلة بكل جراة: « تتمعشق البنت فى التعليم ! » فهتفنا جميعا بحماس منقطع النظير ان لا بأس ويا حبذا ويا ليت والله تنجح . حينئذ خطت « حميدة » نحونا متجاوزة عتبة الباب كأنما لتعبر عن انتمائها النهائى الينا ، وواجهتنا بقوة غريبة واصرار وثقة . وهنا ابتسمت « نوحاية » وقالت كالمعتذرة ولكن فى نهجة طاغية : « بعد ما شاب ودوه الكتاب .. يا بنت دا انت سنك اربعتاشر سنة » . وقالت حميدة : « وايه يعنى .. العلام ملوش دعوة بالسن .. وأنا حاتعلم يعنى حاتعلم حادخل امتحان الابتدائية من منازلهم » ـ طوحنا رءوسنا فى الهواء من النشوة ، دون اى كلام راحت عروضنا فى المساعدة تتسابق وتتصادم امام عينيها .. ولم ننصرف الا وقد انتهينا ـ على قارعة الطريق ـ من توزيع المواد على مدرسيها ـ الذين هم نحن ـ وحدد كل منا عدد الحصص التى (سيلتزم) بأدائها كل أسبوع ، على أن يتم هذا ـ طبعا فى الاجازة الصيفية .

ولكن أى أجازة وأى صيفية ؟ . لقد صرنا نخالس الزمن لحظات سريعة نتحجج فيها بالسفر الى البلدة ، واكتشفنا بعد قليل ان كلا منا قد بدأ نشاطه فى اعطاء الدروس بالفعل ، رأينا بصمات بعضنا وخطوط بعضنا على كراسات الفتاة ، ورأينا أيضا كتبنا القديمة وما تحويه من دسائس ورقية صغيرة مليئة بعبارات مرعوشة لم تكن هى ـ من أسف مضحك ـ تجيد القراءة لتقرأها ! . على ان شيئا غريبا كان يحكم علاقتنا بها . ذلك هو اطار العلو الاخلاقى المزعوم ، وواقعه ان كل واحد يريد ان يعلو فى نظرها على الآخرين ، أن يكون لها بمثابة الأستاذ الحقيقى ، أن يبرر لها شتى مواهبه ويقنعها بأنه (شخصية) قوية و .. مترببى . وهكذا فوجئنا بأننا جميعا (شخصيات) قوية ، ونشط التنافس بيننا فى المواجهة والمتابعة

والحصول على تقديرات أعلى حتى حالفها النجاح وحالفنا . وكانت تتحول شيئا فشيئا الى ما يشبه الرمز فيما بيننا ، تشبه أن تكون هى الدافع وهى الحماس وهى الملتقى ، وهى الأمل المشرق الذى يشد خطواتنا نحو الآفاق الجديدة المشرفة .

قد لا يصدق احد أن « حميدة » دخلت امتحان الشهادة الابتدائية من منازلهم فى نفس العام الذى قررت فيه الشروع فى التعليم ، اننى ما زلت غير مصدق حتى الآن ما حدث ، ولست ادرى بأية قوة خارقة للمألوف حققت هذه الفتاة هذا النجاح فى وقت قصير جدا ، ويكفى اننا ظللنا اربع سنوات نغترب فى المدينة وتكلف اهلنا الجلد والسقط ، سنة بعد أخرى حتى هيىء لنا دخول الشهادة ، فى حين انها – فى لعبة مرحة تشبه المزاح – دخلت امتحان الشهادة و .. تفوقت علينا ! .. نحن الذين تعهدناها بالدرس والتحصيل فيما تبقى من أوقات مذاكراتنا ، جاورناها فى أرقام الجلوس ولكننا لم نجاورها فى القمة التى بلغتها .. لقد كان ترتيبها الاولى على المنطقة كلهـــا بينما لم يحقق أحد منا درجة اعلى من المتوسط ! ..

شيء كالحواديت ولكن .. هل الحواديت الا تقليد للحياة ؟ ..

بفستانها الريفى الجميل وحذائها ذى الطراز العتيق والجورب غير الشفاف ، والشال الاحمر ، واللسان الفلاحى الخالص بلافلحسة أو ادعاء ، كانت تقف بين لفيف من الطلبة والطالبات أولاد الذوات الذين جار عليهم الزمن وجاورهم أمثالنا من الأجلاف اخلاف الحفاة والانفار وأبناء التجار والحرفيين . كانت تبدو وسطهم كحورية من عصور موغلة فى القدم . فصيحة فطنة مرحة بريئة الى حديخجلك. كانت (فرجة) بحق : هذه هى البنت الفلاحة التى نشرت الجرائد صورتها .. صحيح .. ويقف الرائح والغادى ويكلمها ويبدى عجبه قبل اعجابه . وكان الحوش هو حوش المدرسة الثانوية التى التحقت بها « حميدة » على أن تسافر كل يوم وحدها .

أنا الوحيد من بين المجموعة زاملها سنوات فى المدرسةالثانويةولكن مشكلة الاقامة وحدى حلت بوجود أقارب الأمى فى الاسكندرية دعونى للاقامة عندهم فكان باب السعد انفتح لى ، وافرغوا لى حجرة خاصة بايجار قدره جنيه واحد فى الشهر ، ولقد سعى اقاربى لدى شركة

كبريت السنا فالتحقت بها عامل زهورات أثناء الاجازات الصيفية .. فطابت لى الاقامة هناك ولم اغادرها الا للتجنيد بعد حصولى على الليسانس ، وغابت « حميدة » من آفاق حياتى . حجبتها صور جديدة اخذت بلبى وكادت تسلخنى من جلدى .. الا انها ـ «حميدة» ـ كانت تستيقظ فجأة كلما خلوت الى نفسى لحظة . ثم اننى غادرت بحر الاسكندرية الى بحر الحياة العكر . فغرقت فى همومه ولكننى أبدا لم انسى «حميدة» .. أين تراها الآن ؟.. ماذا حققت..لو حققت شيئا ذا بال لسمعت على الأقل صوته . ليلفنى بنفس الصدفة التى حملت الى أخبار الآخرين ، كم انا مشوق الى معرفة أخبارها ! .. أيكون سر الأربعين عاما من العمر هو الذى يحركنا بقلق نحو اخبار الرفاق القدامى ؟ .. هل لنقارن بين نجاحاتنا ؟ أم يكون ذلك الاهتمام بدافع من الحب الحقيقى لحميدة والاعتراف بقوتها واصالتها ؟ ..

و .. فجأة .. لطمتنى زوجتى بالكلمة لطمة افقدتنى صوابى ـ وضعت ساقا على ساق وعقدت ذراعيها على صدرها وقالت كالأم التى امسكت على ابنها شيئا خطيرا : (أمال ايه حكاية حميدة دى) ! هه ! .. نعم ؟! .. قالت زوجتى مندهشة أننى تلفظت باسمها أكثر من مرة وكتبته فى بعض أوراقى المبعثرة ، وكنت افكر فى اختراع شىء أرد به لولا انها صفعتنى بورقة وردية اللون صعقتنى رؤيتها ، كنت قد حاولت كتابة خطاب لحميدة منذ بضع سنوات اسألها فيه عن أخبارها ، ويبدو ان عباراته كانت تحمل أكثر من مجرد الرغبة فى الاخبار . وكان لابد أن احكى لزوجتى حكايتها بكل صدق وامانة، كنت أتصور ان الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكننى فوجئت بزوجتى ذات لحظة رائقة تقول لى بكل حب وصدق : « أنا عاوزة أشوف حميدة دى » . ولكننى لذت بالصمت فى خجل ، فقالت : « ما تيجى نسافر البلد ونسأل عنها » . هتفت : « بتتكلمى جد » . اقسمت أنها جادة فلم اتوان ، تركنا الأولاد فى عهدة حماتى وتسللنا فى اندفاع صبيانى وركبنا الى البلد .. نبحث عن « حميدة » .

العربة البيجو « ٥٠٤ » تسف الهواء وتهبله علينا ترابا وأزيزا ، وتكاد رءوسنا تطير من النوافذ المفتوحة ، ولا احد يقول ـ ولو من باب الرجاء : « ما تقفلوا الشبابيك دى » . وكنت أريد أن اقولها

ولكننى احجمت .. فركوب الأتوبيس القاهرى كل يوم علمنى ان ليس لى دعوى بأى شىء لا يخصنى وحدى ، فلربما تلقيت زجرا يؤدى الى مشاحنة لا لزوم لها . لكن زوجتى تأفت من قوة الريح ونظرت الى .. فبيد مرتعشة مترددة رحت أرفع زجاج النافذة المجاورة لها ، الا ان صوتا عدوانيا خشنا أتى من الكراسى الخلفية : « افتح الشباك يا أستاذ .. روحنا حتطلع » .

نظرت خلفى فاكتشفت أننا ضمن اسرة كبيرة لا يربطها اى رابط ، حتى العربة نفسها لم تنجح فى الربط بينهم ، بل على العكس بدا انها عمقت فرديتهم ، اذ جلس كل منهم مشيحا عن الآخرين بوجهه يتلصص بعينيه كأنه يتوقع عدوانا ، وان تجرأ واحد وفتح حديثا او قدم سيجارة فان مبادرته تقبل اى نعم وبترحيب شديد ولكن اللهجة تكشف عن ارضية من الحذر والخبث « وأنا صاحيلك » .. « ومش على الكلام ده » . فقد وقر فى الأذهان مفهوم مدنى عصرى هو أن الشخص أن لم يكن فى حاله تماما فهو اما نصاب أو محتال !

انتظرت ان يعضد موقفى من النافذة أحد ، لكن الصوت الخشن ظل قائما فى الاذن بلا اعتراض . فقلت له بتهذيب شديد أن الريح قوية ويجب أنتقيها والا نسفت رءوسنا .. فأشار الى صدره وانفه اشارة ذات معنى ، فنقلت البصر فيما حوله فلم تلتقى نظرتى بطرف واحد ، انصعت الى النافذة صاغرا ورحت أخفض الزجاج قليلا قليلا ثم تركته فى المنتصف .

وكنت اجلس بجوار السائق ، وكان بدوره مستغرقا فى القيادة والتدخين ، والعلبة الروثمان تطل أمامه مفتوحة ، وقلت له :

ـ آخر قطر يروح « الشهداء » يطلع الساعة كام ؟

رد بلسان فلاحى النطق :

ـ معنديش فكرة .

احسست انه صفق الباب فى وجهى ، فاشعلت سيجارة نفثت فى دخانها ما تجمع فوق صدرى من آهات قديمة . ولكنه عاد بعد برهة يقول : « حد يركب القطورات الايام دى يا بيه ! » . ضحك الذين فى الخلف ضحكة متملقة كأنه ادلى بحكمة عظيمة . قلت وأنا أمسح عرقى .

ـ خلاص ؟ .. الناس كلها ارتقت وبقى عندها عربيات ملاكى !
قال السائق :
ـ وهو مين المجنون اللى يقف يستنى قطر .. القطر ده معمول لناس ما ورهاش شغل !
ـ ازاى بقى ؟ ..
ـ طبعا .. ومالوش دعوة بالساعة خالص .. الساعة دلوقت اسرع منه .. ما هو الزمن لمؤاخذة بيتغير .. أيام القطار كانت الساعة بتساوى ثلاثة اربعة صاغ .. النهاردة بتساوى ثلاثة اربعتلاف جنيه أحيانا ويمكن أكثر !!

اندهشت من هذا الدماغ اللامع وقلت لنفسى من حقه ان يشرب الروثمان ، ما دام يحسب الوقت بهذه الدقة . عزم على بواحدة فقبلتها ، وقال وهو يشعل لى :

ـ أحسن حاجة للشهداء تأخذ تاكسى بالنفر ..

قلت لا بأس ولكننى أريد الذهاب لقرية متاخمة للشهداء اسمها « أبو دعموم » . فنظر نحوى وقد انقلب الى قط وديع مبتسم :

ـ انت حضرتك من أبو دعموم ؟

قلت : نعم .

قال : اهلا وسهلا .. بلد « جمالات المنسى » .

اندهشت ثانية ، صحت : هى « جمالات المنسى من أبو دعموم » ؟

نظر لى بدهشة اكبر : ما تعرفش ولا ايه ؟

قلت بصدق : ابدا والله .

قال ببساطة : تبقى حضرتك مش من هناك .

وقالت زوجتى بنوجس : اتهيالي سمعت الاسم ده او فريته . افتظت من جهلها الفاضح ، قلت : ما تعرفيش « جمالات المنسى » .. كانت عضو مجلس الشعب فى فترة من الفترات .

وقال السائق متشككا : لكن ازاى يا بيه تبقوا بلديات وماتعرفش ؟؟

قلت له : ان صلتى بالبلد ليست دائمة ، واننى منذ توظفت فى المدينة لم اعد ازور القرية الا لماما .

قال بثقة : «حضرتك من دار مين ؟ » . فعرفت أنه فلاح قرارى . وقلت على الفور :« انا فلان ابن فلان » . امتدت يمناه نحوى

مبسوطة : « أهلا أهلا .. بقى انت الأستاذ فلان .. فرصة سعيدة خالص » سلمت عليه بحرارة . مال بدربة فائقة نحو زوجتى : « أهلا يا مدام » وسلّم عليها . قلت له : و « حضرتك مين بقى ؟ » ـ قال أنه أسف لأننى لم اعرفه ، رحت أدقق فيه النظر بامعان ، راح هو يبتسم ولا يلتفت ، تعرفت أولا على شعره .. نعم شعرة .. فشعره الأحمر الهائش المبروم على هيئة خواتم صغيرة شعر تنفرد به أسرة كبيرة موسرة تسكن قرية صغيرة متاخمة لقريتى ، ثم لهجته ، نطقت على الفور : « انت من عيلة فلان » . اتسعت ابتسامته : « بالضبط .. وكنا زمايل ـ فى فصل واحد فى المدرسة بتاع البلد » صحت باسمه : « أهلا شفيق » ..

سلم على مرة أخرى واضعا فى يده كثيرا من عمق الذكريات ومداعباتها الساحرة . ثم اندفع يحكى قصته ، بعد حصوله على الابتدائية حرن على التعليم وطفش متفاديا اللوم والتقريع والتهديد، واشتغل ملاحظا بورشة لاصلاح السيارات بالاسكندرية ، عليه أن يكتب لكل عربة فيشة ، ما نوعها ورقم رخصتها ورقمها فى الوارد وماذا بها للاصلاح وكم على صاحبها أن يدفع عند الاستلام ، فاكتشف ان أقل صبى من صبيان الاسطوات يرجع كل يوم بخمسين قرشا على الاقل خلاف أجره الاسبوعى ، اى أن هذا الصبى يحصل على ضعف مرتبه هو الأفندى حامل الابتدائية ، فما بالك بالاسطى ، ثم ما بالك بصاحب الورشة ! .. فما كان منه الا أن خلع القميص النظيف وارتدى العفريتة الزرقاء وقدم نفسه صبيا للأوسطى ، وأما الملاحظة فقد دبروا لها مغفلا آخر من شبابنا المغرمين بالمكتب والجريدة وحسن الهندام .. ولم تمض سنوات طويلة حتى أصبح يملك ورشة خاصة به متخصصة فى تصليح الفيات ، وهو الآن يملك محلا لقطع الغيار فى عاصمة المحافظة التى تتبعها ، وفى نفس الوقت يعمل على هذه العربة التى هى ملكه أيضا ، وقد تهيأ له بذلك أن يراعى محل قطع الغيار فى عاصمة المحافظة ، وأن يلحق بحساب الورشة آخر الليل فى القاهرة .

خيل الى أننى اتفرج على أسطورة من أساطير العصر . وسألته :

ـ وبتنزل البلد كثير ؟

قال :

ـ ان شاء الله ناوى أفتح سينما فى أبو دعموم !

ـ سينما ؟!

ـ تكسب دهب .. البلد حواليها عشرين عزبة وثلاثين كفر .. وكبرت قوى .

ـ من الميكانيكا للسواقة للسينما ؟

ـ القرش يعمل كل حاجة .. معــاك قرش تبقى زى ما انت عايز ..

اشرق فى رأسى خاطر . هتفت :

ـ اسمع .. ما بتسمعش أخبار عن « حميدة » ؟

ـ مين « حميدة » ؟! اول مرة اسمع عنها .

ـ حميدة .. اللى .. اللى .. اللى ربنا أداها سر آدم ..

وابتسمت اذ رددت كلمة العامة كما سمعتها ..

فتفكر قليلا وقال :

ـ الحقيقة ما سمعتش عنها .. أشهر اسم فى البلد هو « جمالات المنسى » .

وقلت لنفسى :

ـ جئنا نبحث عن حميدة فظفرنا بجمالات المنسى ..

وقال السائق :

ـ اسمها « حميدة » ايه ؟

انتبهت فجأة الى أننى لا اذكر اسم أبيها ، ونظرت الى زوجتى كأنها تعرفه ، ثم ابتسمنا معــا وأدركنــا مدى عبثية الموضوع من أساسه ، وجاءتنى احساس بالرغبة فى العودة ، ولكن حبى للذكريات القديمة وطرافة المغامرة ولقائى برفيق الصبا الباكر جدا كل ذلك دفعنى الى مواصلة الرحلة . فجأة قال السائق : « حمد الله على السلامة » . فعرفت أننا وصلنا الى مدينة دسوق . وكان شاطىء النهر والروث والأشرعة والحنــاطير كل ذلك يقنعنى أننا لم نغادر القاهرة .

رمى السائق يمينا بالطلاق الا يأخذ أجر التوصيلة ، وحينما ابديت اصرارى على الدفع اطبق بيده على النقود دون مقاومة ، ثم قال :

« اتفضل معاية » . فمضينا خلفه الى موقف للسيارات قريب واذ بنا أمام ساحة لتبادل الشتائم المقذعة التى هى علامة على الود فيما بينهم ، وكانت هذه الشتائم فى صبانا هى العلاقة المميزة على المدنية . توقفنا عند سيارة متهالكة ، فتح سائقنا بابها وقال :

ـ « اتفضل يا بيه » .

فقدمت زوجتى التى ركبت ثم ركبت بجوارها واغلقنا الباب . وقال سائقنا لسائقها :

ـ « وصل البيه أبو دعموم » . فركب السائق وهو يستدير نحونا متمعنا ليتعرف على أصلنا . ثم انه ادار المحرك وانطلق .

بقينا فى صمت مدة طويلة الى أن تضاءلت خلفنا مدينة دسوق ثم اختفت تماما . وقلت للسائق الشاب : « اسمك ايه يا شاطر ؟ » فقال :

ـ « خدامك صلاح .. وحضرتك » .

فقلت له على اسمى فقال أهلا وسهلا ولم يبد عليه أنه يعرفنى ، ولما رأيته يغوص بنا فى طريق لم أفلح فى تذكره ابدا قلت له :

ـ « انت نسيت احنا رايحين فين » ؟!

قال :

ـ « أبو دعموم » .

قلت :

ـ « بس الطريق ده مش هوه » .

ـ « ما هو ده الطريق اللى المرحومة عملته » .

ـ مرحومة مين ؟

ـ جمالات المنسى .

ـ هى ماتت ؟! « ثم شهقت زوجتى معى ! » .

ـ تعيش أنت من ثلاث أربع سنين كده ويمكن خمسة !

ـ ماتت ازاى ؟!

ـ ماتت فى الطيارة اللى كان فيها سلوى حجازى بتاع التليفزيون .

ـ لا حول الله .

قالت زوجتى متشائمة .. وأضاف صلاح :

ـ كانت مسافرة لجوزها مش عارف فى ليبيا ولا فى بيروت .

ـ جوزها مين ياصلاح ؟
ـ أصلها لمؤاخذة كانت متجوزة ولد فلسطينى مركزه كبير .
ـ تاجر ولا موظف ؟
ـ لا .. فدائى .. كان زميلها فى الجامعة وحبها .. واتجوزته .. وبقى يسافر يعمل حاجات ويرجع لها .
ـ حاجات زى ايه ؟
ـ حاجات فدائية يعنى .. ولما ماتت هو راخر مات على طول .. ما استحملش ..
ـ مات ازاى هو راخر ؟
ـ أهم بيقولوا عمل عملة كبيرة مات فيها .
ـ عملة ايه .. خير ؟!
ـ عملة م اللى بيعملوها الفداوية .
ـ آه ..

وابتسمنا أنا وزوجتى ابتسامة مرة المذاق ، ثم حط علينا صمت عميق ، وكان الطريق الذى شقته المرحومة بجهودها يزرى بأى طريق فى أى عاصمة كبرى .. وسألت صلاح كيف شقته فقال انها كانت تقف على كل البلاد المستفيدة من هذا الطريق وتجمع من أهلها النقود ، وكان الرجل الذى لا يدفع أبدا حين يراها يخجل ويدفع لها ما تحدده بلسانها ، وجمعت من الوزرات والهيئات ومن كل مكان له سيارة أو دابة تمشى على الطريق ، وساعدها طلبة المدارس ، حتى هم الآخرون دفعوا مصروفهم الصغير ولفوا معها فى كل مكان .. و .. « تصور يا سعادة البيه .. كانت بتلم فلوس للفلسطينيين عشان يشتروا بيها بنادق .. ووالله والله يابيه الله يرحمها بقى ، كانت تروح الجامع وتقف تخطب زى الرجالة بعد الأمام ما يخلص ، وتسافر مع العيانين وتجيب لهم عربات على حسابها ، وتشترى لهم الدواء ، حقولك حاجة يابيه مش حتصدقها .. فى مرة ولد تلميذ مات فى حادثة ، واثنين ثلاثة تعوروا ، القطر عمل بهم حادثة ، وكانوا فىالاعدادية .. تعرف .. ما استريحتش الا اما جابت فى البلد مدرسة اعدادية .. اى والله .. الأول جابت فصلين .. وبعدين بقى امتحان الاعدادية يحصل فى البلد نفسها .. الله

يرحمها بقى كانت اجدع من ميت راجل » ..

أخذ دماغى يروح ويجىء ، ويعصر علاياه بحثا عن أصل هـذه السيدة ، فلست أذكر من بلدتنا شخصا يدعى المنسى ، ولم يكن تعليم الفتيات منتشرا أيام جيلنا .. ثم سألته :

ـ هى المرحومة كانت متعلمة ؟

ـ الا متعلمة .. آخر علام .. كانت متخرجة من الجامعة فى كلية الحقوق .. واشتغلت محامية الاول عند واحد محامى كبير وبعدين فتحت مكتب في المركز .. وحياة المصطفى كان شغال ببلاش للى معاه واللى معهش ؟!

عبثا حاولت التعرف عليها ، وحتى صورتها لا اذكر أننى رايتها فى جريدة أو مجلة ، فلابد ان المرحومة كانت جادة ولم تكن تجد الوقت للدعاية لنفسها .

وقالت زوجتى بلهفة :

ـ انت من البلد طبعا يا أسطى ..

ـ طبعا ..

ـ تعرف « حميدة » ؟

ـ « حميدة » مين .. حميدة ايه ؟

أسرعت قائلا :

ـ اللى كانت ساكنه جنب محمود البقال .. ودارهم فى الشارع العمومى .

حدق فى الهواء برهة ثم قال :

ـ بصراحة انا ما أصحاش للدار دى .. محمود البقال عارفه لسة موجود ..

ـ والدار اللى جنبه ؟

ـ مفيش دار جنبه يابيه .. دى كلها دكاكين ومخازن وقهوة .. اطلع ألاقيهم ؟!

وأحسست باليأس الشديد ورحت ابحث عن ملامح شاردة من وجوه الذكريات القديمة . وكنا قد دخلنا فى طريق فرعى تحفه البيوت على الجانبين ، بيوت السرايات . أبدا ليست هذه قريتى ، بدات أتشكك من جديد ، وخيل الى اننى وقعت ضـحية ظروف

محتالة أخذتني في متاهة كاذبة .. وقلت للسائق : « هل هـذه قرية أبو دعموم ؟ » قال : « أيوه يابيه ســـلامة الشوف » .. اضطررت للنزول ، ووقفت أتأمل علني أتذكر شيئا غائبا ، ونزل « صلاح » وأخذ يشير الى بعض البيوت :

ــ بالامارة أدي المدرسة الاعدادية اللي عملتها المرحومة .. وأدي الجمعية الزراعية اللي هي عملتها برضه .. وادي كابينة البوستة .. والتليفونات مع بعض .. أمال يابيه آخر ابهة .. وعلى فكرة .. عواميد النور دي .. اللي واقفة زي الشاهد ، كانت المرحومة هي اللي مجمعاها من الشجر .

قلت على سبيل المزاح : ولكن أين بيتنا اذن ؟

قال صلاح : لابد يكون بقى في البلد القديمة .

هتفت : أيوه وديني البلد القديمة .

قال صلاح : طب مش تقولي كده م الاول يابيه ؟ .. كنا رحنا في الطريق القديم ؟

صحت : وهو الطريق ده ما يوصلشي ؟

ــ قال لا .. كان لازم يتعمل الطريق ده من هنا عشان يبقى موصل على حتت كثيرة .. انما تقدر يا بيه تخرم على القناية دهه تنزلك وسط البلد .

ثم لم نمض أكثر من دقيقة ، بل لعلها جزء من الثانية ، وانفتح الدماغ على المرئى ، أنت تفكر في انسان أو يمر بذهنك شخص مرا عابرا ، فاذا بك تراه في التو ، فيقول هاتفا : « يا ليتني فكرت في الف جنيه مثلا » . وما حدث أنني وقفت حائرا مكتئبا للحظة أحاول فيها تذكر شكل « حميدة » وحجمها ، فاذا بها ــ كالسحر أو كالخيال أو كالحواديت ــ تمـــرق أمام عيني خارجة من شارع صغير . حينئذ صحت كطفل سعيد لقي أمه بعد عذاب :

ــ أهه .. حميدة .. أهي هناك أهي .. بس خلاص لقيتها .

ثم اندفعت أجري خلفها .. ولحقني صوت زوجتي .

ــ يا راجل يمكن ما تكونش هي .

وناديت بأعلى صوتي :

ــ حميدة .. يا آنسة حميدة .

فالتفتت خلفها ، فأيقنت انها هى ، وأشرت اليها ، ولكنها لم تتلق اشارتى ، حيث استدارت وتابعت سيرها من جديد ، وكان على أن اندفع جريا الألحق بها . استدرت للسائق لاهثا أرتجف .

– تعرف بيتها يا اسطى ؟

قال ببساطة :

– ريح بالك بس دى ما اسمهاش حميدة .

اغتظت ، قلت :

– لا يمكن أن تكون غير « حميدة » ..

قال السائق :

– يا سعادة البيه دى مش حميدة .. دى أنا اعرفها كويس ..

قلت :

– ما هو مش ممكن الشبه يكون قوى للدرجة دى ..

وقالت زوجتى بابتسامة مشفقة :

– حميدة اللى انت تعرفها مش ممكن تكون دى .. دى بنت سنها ما يزيدش عن خمستاشر سنة .

وأضاف السائق :

– يا ريت .. دى بتاع تلتاشر بس هى اللى فايرة .

واستدركت زوجتى :

– حميدة اللى انت تعرفها لازم تكون سنها دلوقت على الاقـل أربعين ثلاثة واربعين سنة .. مش كانت فى سنك .

هبط العرق على كل بقعة فى جسدى ، وأدركت .. اننى سقطت صريع لوثة غيبت عنى كل تمييز .. ولم تقو ساقاى على حملى فاستدرت الى « رفرف » السيارة ، ولكن الصورة التى رأيتهـا الآن تتطابق تمام المطابقة مع الصورة التى فى راسى ، حتى القوام وتقاطيع الجسد ، حتى الخطوة ، تذكرتها بحذافيرها ، وأجزم ان ليس ثمة فرق يذكر بينها وبين « حميدة » .

اقترب منى « صلاح » السائق وبسط ابتسامته فى سماحة وهو يقول :

– انت يا سعادة البيه عايزها فى حاجة ؟

قلت له باصرار :

ـ تعرف بيتها ؟

قال :

ـ طبعا .. اعرفها كويس قوى .. مش بنت بلدى ! ..

قلت له وما اسمها ؟

قال : اسمها « مصرية » ..

ثم تريث قليلا قبل أن يصفعنى بالحقيقة التالية :

ـ تعرف دى تبقى مين يا سعادة البيه ؟

قلت بلهفة :

ـ لا .. تبقى مين ؟

قال برعشة من شفتيه :

ـ تبقى بنت جمالات المنسى :

هتفت ضارعا .

ـ ارجوك .. وصلنى بيتها .

ـ طب اتفضل اركب يا سعادة البيه .. والله لولا المرحومة ..

ولف ثم ركب .. وانطلقت بنا السيارة تخوض فى طريق متعرج ضيق ، وكنت أشفق على السيارة ، وعلينا ، وأخاف ان انحرفت عجلة القيادة أقل انحرافة ، لكننى كنت واثق انها لن تنحرف ، ذلك أن السائق كان متحمسا وواثقا ، اذ كان يفعل ذلك من أجل روح .. المرحومة ..

اخيرا وصلت السيارة ــ بشق الانفس ــ الى كوبرى صغير أعرفه جيداً . كان على أيامنا عاليا ، أما الآن فلست أعرف ما اذا كانت الأرض هى التى ارتفعت أم أنه هو الذى هبط . من قديم كان يقوم فى هذا المكان « سبيل » . بحثت عنه ، بل أننى أحسست بالعطش مثلما كان يحدث دائما كلما مررت بهذا المكان .. لم تكن تنقطع عنه المياه قط . وقد رأيت بقاياه قائمة تشبه بقايا برج صغير أثرى .

قلت للسائق : هذه هى « أبو دعموم » فعلا .

فقال : ان سكان البلدة الجديدة يطلقون عليها : البلدة ثم انه داس فوق البنزين فجاة فصرنا فى قلب البلد ، وعرفت ان البيت القديم الذى كانت تسكنه « حميدة » قد انتقل ـ لابد ــ من مكانه الذى أعرفه . على أن العربة شقت طريقهــا الى حديقة النخيل

الكبيرة ، رقص قلبي ونحن داخلها ، فقد كان من أحلام طفولتي ان أجوس بين النخيل حتى أصل الى ذلك العمق الساحر . لم يكن النخيل الا تمويها يخفى بداخله قصرا صغيرا من ثلاثة أدوار ، ورايت العربة تخترق الطريق اليه ، وهى طريق مستقيمة معبدة ومفروشة بظلط ملون . قلت للسائق :

ــ المرحومة « جمـــــالات المنسى » كانت تقرب لعزيز باشا استفانوس ؟

قال :

ــ لا .. لم تكن تعرفه !

قلت :

ــ ولكن هذا هو قصره الذى كان بمثابة استراحة يقضى فيها اسابيع وشهورا من كل عام ، وكان يظل ساهرا ومفتوحا سواء هو موجود أو غير موجود ، لأن طائفة من الخـــدم والتملية يسهرون بدورهم على هذا احتمالا لقدوم الباشا فى أى وقت .. وحين تركت قريتى وســـــافرت الى المدينة نهائيا كان وضع الباشوات والبكوات قد تحدد ثم انقرض .

قال صلاح السائق فيما تتهادى العربة :

ــ ده بقى سكن المرحومة !

تبادلت النظر مع زوجتى ، كان اعتراضا قد دفعنا لذلك ، كان هذا لا يتناسب مع الشخصية التى فى ذهننا . وكانت أبواب القصر وشبابيكه قد راحت تتفتح وتطل من خلالها رءوس ، ثم ما لبثت الرءوس ان صارت بشرا يقتربون من السيارة يحاولون النظر الينا فى تدقيق ، يحاولون التعرف فى ملامحنـــا على أقارب لهم أو اصهار . فلما توقفت السيارة نزل السائق فنزلنا معه ، وتقدم نحو عتبة السلم الأمامى قائلا : سلام عليكم ، فهبط رجل اشيب الشعر يتوكأ على عصا من الأبنوس ، وقرب أذنه من صلاح فيما ينظر نحونا باستغراب وتوجس ، وننظر نحن اليه بفضول وتمعن . قال صلاح بصوت عال :

ــ الجماعة دول عايزين الآنسة « مصرية » .

قال ذو الشعر الأشيب والكلمات تصفر فى فمه :

ـ مصرية مين ؟
فحطت علينا خيبة أمل ثقيلة .. وقال صلاح :
ـ بنت المرحومة .. « جمالات المنسي » .
صاح ذو الشعر الأشيب وهو ينقر الأرض بسن العصا :
ـ أ .. ه .. وه .. مش بيتها يا ابنى .

ـ هى مش كانت ساكنة هنا ؟
ـ دى مش هى يا ابنى .. منهم لله البعدا .. لا حول الله ..
ثم راح يمصمص بشفتيه ، والعيون المتلصصة من النوافذ تختفى لتظهر من جديد فى أماكن أخرى . والعجوز يواصل :
ـ دى كانت واخده أوضه فوق هى وأمها .. وكانت بتخش لها من السلم الورانى .. اما البيت فكان واخده الاتحاد الاشتراكى الف رحمة تنزل عليه !
كانت نبرة التشفى واضحة وبعمق فى صوته ، ثم أنه استدار غير عابىء بنا وصعد الدرجات وارتمى فوق كنبة من الخيزران ومدد ساقية على ترابيزة من الخيزران أيضا .. واحسست اننى أريد أن ابصق فى وجهه مائة عام على الأقل ! ..
وقال صلاح بآخر ذرة فيه من أدب :
ـ أمال حضرتك تبقى مين ؟
ضرب الأرض بعصاه فى قوة . صاح ورذاذ فمه يتطاير نحونا :
ـ أنا صاحب البيت ده .. خلاص انفكت عنه الحراسة .. جمالات المنسي دى كان زمان وجبر .. دوروا عليها هناك .. مطرح ما كانت فى أصلها القديم ! ..
ـ مصمص له يرجع لأصله !
نظرنا نحو مصدر الصوت ، فاذا بها عجوز كركوبة بيضاء الشعر كأنه باروكة من التيل . ورغم أن العدوان كان واضحا تمام الوضوح فى وجهها وفى تشنج أطرافها الا انها قالت بلهجة مهذبة .. كأنما لترينا جوهر أصلها :
ـ شوف يا ابنى .. احنا ما نعرفش حاجة من المنسى بتاعتك دى ..
احنا خدنا حكم بالطرد .. وخدنا البيت .. عايزين مننا ايه تانى ؟ ..

كفاية محرومين من بيتنا عشرين سنة .. وأولادنا سكنوا بالاجرة زيهم زى أى واحد .. حلوا عننا بقى .. البيت أهه زى ما انتوا شايفين مليان من فوق لتحت .. فيه الفاميليا كلها .. واحنا ما صدقنا – وعمرنا ماحذفرط فيه تانى .. خلاص .. لو كنا نعرف من الاول ان الحكاية هزار بايخ كده ماكناش سكتنا الوقت ده كله !

اشفقت على السيدة رغم كل شىء . تبادلت الابتسام مع زوجتى. هزأ منها صلاح بحاجبيه وشفتيه فأضحكنى .. وقلت لها بكل ادب :

– يا ستى احنا ضيوف من القاهرة .. وبندور على واحدة قريبتنا .. بدال ما تقول لنا اتفضلوا قهوة .. ع العموم احنا متشكرين .. يلا بينا يا أسطى ..

خرج شاب من الباب حلو المظهر جميل التقاطيع . نصفه ابن ذوات قديم ونصفه شقى ، لكن شقاوته هى الملمح البارز والحلو فى طلعته . كان يمسك فى يده مجلة « الشبكة » .ويمسك باليد الاخرى جهاز تسجيل تتصاعد منه الاغنيات الاجنبية الراقصة . قال : « فيه ايه ؟ » . قال ذو الشعر الأشيب : « سيبك منهم يادحة أنا عارفهم كويس .. شربت منهم كثير وطعمهم مر ريقى وعلقم صدرى » . وقالت المرأة العجوز : « مفيش حاجة يا ممدوح .. دول ناس بيسألوا عن بيت المنسى » . تقدم « ممدوح » الينا باسما :

– تعالوا أوريكم بيتها ..

كدت أحتضنه . انصعت وراءه ، تذكرت السيارة فرجوت صلاح أن يبقى . فربما فشلنا فيعود بنا . لكن « ممدوح » قال لى : « متخافش فيه عربات كثيرة .. سيبه يشوف شغله .. مع السلامة أنت يا أسطى » . فعدت الى صلاح واعطيته حسابه وشكرته واعطيته أيضا عنوانى فى القاهرة . ومضيت مع زوجتى خلف ممدوح ، وكنت أعجب من ارتفاع صوت التسجيل وارى أنه يصنع فضيحة كبرى فى الشوارع ويلم الناس علينا ، لكننى خشيت أن أقول له : « وطى الصوت شوية » . ولم يكن يثير دهشتى – سوى رؤيتى لبعض الذين اكتشفهم فجأة وأكاد انطق بأسمائهم رغم

عوامل الزمن الواضحة عليهم وكيف أنهم يتوقفون ناظرين الينا فى فضول دون ان يتعرفوا علينا . وهمست زوجتى فى أذنى :

ــ بعد الفضيحة دى كلها مفكرناش حنقول لها ايه ولا احنا عايزين ايه ؟! فغمزتها فى يدها قائلا :

ــ مش مهم .. امشى بس .

تباطأ ممدوح وتقهقر حتى حاذانا ، فعـــــرفت ان البيت قد اقترب ، الا أنه ــ ممدوح ــ توقف امامها .. المدرسة .. مدرسة البلد الالزامية التى تعلمنا فيهـــــا فك الخط . التحمت عيناى بالجدران وصارت تتحسسها بقعة بقعة ، وتعلق بنظراتى بصمات كثيرة ليدى : خربشات يدى والأحبار التى مسحتها فيها ، كلمات سوقية كتبتها على جدرانها . تحت هذا الشباك بالتحديد زنقتنى الحاجة ذات مرة فأقعيت وقضيتها دون حرج ، ونالتنى بسببها علقة بالفلقة ، كانت المدرسة كابية وغارقة فى الرطوبة ، وزحفت مبانيها فشغلت الحوش الكبير الواسع . صاح ممدوح بلهجة نصف بندرية :

ــ يا عم عيد .. يا عيد !

انفتح باب ملاصق لجدار المدرسة ، يصنع مع جدار يتوازى مع جدار المدرسة حارة سد ، أطل منه وجه عجوز تجاوز السبعين من العمر : عم عيد ! .. كيف .. فراش المدرسة الذى كان يسقينا ان عطشنا ، ويرافقنا الى دورة المياه ، ويوزع علينا الكتب ، ووجبة الغداء الممنوحة لنا من الوزارة ، ويرفع أقدامنا بالفلقة لتنال حظها من بوصة المعلم .. ها هو ذا عم عيد بلحمه ودمه : هناك أشياء تبقى دائمـــا فى هذه الحيـــاة لتجسد القديم وتحيى الماضى الـــذى لا يموت . نفس الوجه ، نفس البسمة المحملة بالألم الغامض ، ويده التى لا تنى تهش الذباب حتى لو لم يكن هناك ذباب . نظر الينا بدهشة كبيرة ، قال :

ــ أهلا سى ممدوح .. اتفضلوا .

توقف « ممدوح » برهة كأنما ليعلن عن رغبتنا الحقيقية فى التفضل فغاب « عم عيد » فى الداخل برهة طويلة ثم عاد ففتح الباب هذه المرة على وسعه ، فطالعتنا باحة مستطيلة مفروشة بالحصير الملون

المزخرف بزخارف اسلامية ، وثمة مساند بحذاء الحائط ، وطبلية قديمة ، وعدة شاى متناثرة ، وبلاص مائل وسط فجوة رطبة ، وطشت وابريق ، وثمة كومة من اللحم البشرى تتقرفص فى ركن بعيد لباب قاعة جوانية فى المواجهة .

تنحنح « ممدوح » قائلا : يا ساتر .. ثم خطا الى الداخل فتبعناه على استحياء ، وسلمنا على « عم عيد » . ولم أشأ ان أذكره بنفسى فى التو . كان ينظر الى بالحاح وتدقيق .. فما أن خلعنا أحذيتنا وتربعنا فوق الحصير حتى جلب الوابور وراح يعطيه نفسا . ثم ان البراد تربع فوق النار ، وألقمه « عم عيد » حفنة من الشاى ثم نظر الينا قائلا : « انتو شرفتوا » .

قالت زوجتى :

ـ ما تعرفش الأستاذ ده يا عم عيد ؟

وأشارت الى ، فانتهز الفرصة وركز البصر فى وجهى وقد انبسط وجهه حتى صار كطفل صغير ، قال : « شكله مش غريب على » .. ثم كشر حاجبيه فجأة وصاح : « شبه دار فلان مش كده » . صاحت زوجتى : « برافو !! » .

هتف عم عيد : « تبقى انت فلان .. أهلا بيك » .. انتشيت راقبت وجه ممدوح فرأيته قد انتشى هو الآخر كأنما وقف على حقيقتنا واستراح من التخمين . ثم راح ينظر الينا نظرات ذات معنى ثم قال لعم عيد :

ـ اصلهم كانوا جايين يسألوا على المرحومة .

حينئذ جاء صوتها قويا هادرا حكيما :

ـ لسة فيه حد بيهمه أمرها .. ويسأل عليها .. الحمد لله .. أنا كنت عارفة ومتأكدة انها لازم تفضل عايشة .. وربنا عمره ما خيب لى أمل .

عرفتها من صوتها .. وكانت الدموع فى عينى قد شطرت المرئيات كلها الى نصفين ، وكان وجه « عم عيد » قد انزرد واحمر واكتسى بحزن جليل بلغ حد الابتسام العظيم . كانت رأسى تدور وتدور وتدور ، وكل شىء أمامى يدور بسرعة فائقة . قال : « عم عيد » :

ـ ما توحد الله يا أستاذ .. احنا كنا نسينا ..

فعرفت انني كنت أبكى .. وكنت أبكى بحرقة شديدة ، وكنت احس أن قوة فى الارض بالغة ما بلغت من الجبروت لا تستطيع ان توقفنى عن البكاء الجارف . وقال « عم عيد » كأنه يزكى فى نفسه الاحساس بالحزن :

ـ دى كانت حلم ، يا سعادة البيه .. كانت لحظة واتخطفت .

وقال ممدوح كأنما ليدافع عن عشيرته :

ـ كل اللى خدمتهم فى حياتنا عضوا أيدها .. يعنى النمس ده مثلا .. ماكانش قادر يعمل حاجة لبنتها ؟ .. الحاج نمس مش فاكر يا عم عيد يوم ما شغلته مخزنجى فى الجمعية الزراعية ؟ .. شوف كان بيجرى وراها ازاى ؟ .. وفى الانتخابات كان ماشى وراها زى الخدام ..

ـ عشان مصلحته ..

ـ طبعا .. كان بيكسب من وراها .. دلوقت بسم الله ما شاء الله عنده عمارتين فى المبانى الجديدة ..

ـ هنياله .. اللى يكوش ربنا يسهل له بس يشبع !

وقال « ممدوح » بحقد شديد :

ـ النمس ده .. أيام ما كانت المرحومة مشغولة بمصالح البلد والناس .. كان هو مشغول بالتكويش .. وصلت ثروته الى حد أنه يشترى عمارة المركز .. ويكتبها باسم مراته .. ويخدع المرحومة ويأخذ منها خلو رجل عشان يديها شقة فى العمارة تعملها مكتب .. والمرحومة من طيبتها ما تعرفش ان العمـــــارة بتاعة مراته يعنى بتاعته !

ـ ياريتها جات على حد كده ! ..

هكذا قال « عم عيد » مشوحا . ثم أضاف :

ـ بمجرد المرحومة ما ماتت خـد عفش المكتب وفاء بالايجـار المتاخر !

أحسست أن فى دمى أشياء تأكلنى وتقرض أعصابى .. ثم قال عم عيد :

ـ المرحومة ما كانتش موظفة .. ما سابتش لليتيمة اى حاجة .. والمصيبة السودة .. البنت كانت فى مدرسة بالمصـــاريف .. رفدوها ..

ودخلناها مدرسة البلد الاعدادية .. قالت ملهاش مكان .. ولحد النهاردة مش لاقيين لها مكان !

هتفت :

ــ هى فين الآنسة « مصرية » .. عايز أشوفها .

لاحظت الفرحة قد أشرقت على وجه ممدوح ، وتحفز . ولكن « عم عيد » شوح بما يشبه الغمز :

ــ مش هنا .. راحت مشوار وجاية .. أظنها بتملى ميه من الحنفية العداد .

ثم اتجه الى « ممدوح » فجأة :

ــ أهلا سى « ممدوح » .. كيف الحال ؟ ..

وكانت فى لهجته نبرة واضحة تقول له « قوم بقى روح » ومن الواضح ان ممدوحا قد أحسها ، فما أن شرب الشاى الدور الثانى حتى قام وسلم علينا ثم انصرف ، فحل بالمكان سكون خرافى ، بعدها مباشرة صاح « عم عيد » :

ــ تعال يا مصرية !

فنظرت اليه ، فتلقف نظرتى وأجاب عليها :

ــ المؤاخذة .. حاكم الولد ممدوح ده حاطط نقره من نقر البنت .. داير عليها يعنى .. مش عشان يتجوزها .. لا .. زى ما تقول يعنى عايز يلعب معاها أو يلعب عليها . المهم انه عايز يلعب وبس !

فكرهت « ممدوح » بعد أن كنت أحببته . واستدرك « عم عيد » :

ــ بس البنت بتصده .. وما بتعبروش خالص .

ثم ان « مصرية » أقبلت .. أقصد « حميدة » .. نفس الخدود المستديرة الحمراء من فرط الخجل ، يطل منها نبل وذكاء لامعين متوهجين ، ونفس الابتسامة الواثقة البريئة المعبرة عن الانبهار وحب الرؤية . سلمت علينا ولثمت يدها هى ، كأنها تلثم آثار أيدينا . ثم جلست فى مواجهتنا ، وقلت لزوجتى :

ــ هذه هى « حميدة » .. حميدة التى كنت وسأظل أعرفها ..

فانكسرت الاشراقة الطبيعية فى وجه « مصرية » .

وجاء صوت العجوز :

ــ لسه فاكر يا قلب أمك .. ياه .. حميدة ..

وابتسم « عم عيد » :
ــ دا انت يابيه تعرف المرحومة من زمان قوى !
ــ طبعا .. مش كنا زملاء وأصدقاء ؟ ..
ــ ما هو باين اهه .. بدليل انك بتقول عليها « حميدة » ..
ــ الله .. هي ما كانش اسمها حميدة ؟ ..
ــ حميدة كان اسمها اللى احنا طلعناه عليها من يوم ما تولدت .. لانها كانت شبه خالتها .. الست بتاعتى الله يرحمها .. لكن ابوها قيدها باسم تانى .
ــ بقى حميدة .. كان لها اسم تانى فى شهادة الميلاد ؟ ..
ــ أمال .. كان اسمها جمالات .. جمالات عبد العزيز المنسى ! ..
أحسست اننى اهبط فى جب عميق مظلم غاية الاظلام . احسست أن حياتنا كلها من اولها الى آخرها تنشأ وتؤوب الى هذا الجب ، وان كل الاشراقات والتمنيات والاحلام ان هى الا اطـــلالة سريعة خاطفة تطل خلالها رءوسنا من حافة هذا الجب ثم سرعان ما تغطس فيه من جـــديد .. ان هـــو الا عفن فى عفن فى عفن .. آه لو يستطيع الانسان ان يتحرك الآن ، ان يفعل شيئا ، ان يحتضن هذه الوثيقة المشرئبة المتحفزة ، ان لو بامكانه ان يهيىء لهـــا مناخا ، آه لو .. آه لو .. ولكن .. كيف .
ــ مش ناوى تسلم على الحاجة ؟ ..
انتشلنى صوت « عم عيد » ..
ــ ياريت ؟! ..
ثم نهضت واقفا ، وتقدمنى « عم عيد » الى القاعة الجوانية ، مخزن للظلام الكالح العطن ، رائحة الرماد تنبعث من فرن فى مدخل الباب ، تحسست الظلام حتى لمست يدا معروفة لكنها قوية ومتينة من فرط ما عملت وناضلت .
ــ ازيك يا حاجة ؟
ــ ازيك يا ضنايا اهلا وسهلا ..
ووسعت بجانبهـــا مكانا على المصطبـــة الـــكبيرة المحتلة كل فراغ القاعة . جلست على الحافة ..
ــ هل تعرفينى يا خالة نوحاية ؟ ..

ابتسمت .. تبينت فى ابتسامتها كثيرا من دماء « حميدة » .. و « مصرية » ، فأحببتها حبا شديدا مدت يدها ولمست على رأسى وكتفى ، استكنت تحت يدها كأنها سترقينى ..

ـ انا فلان .. ابن فلان ..

ـ كنت بتذاكر مع المرحومة .

ـ البقية فى حياتك ..

ـ البقية فى « مصرية » ..

ـ ربنا يأخذ بيدها ..

ـ هو لن يتركها .. هو لا يكذب .. هو لا يرضى .. هو لايغفل..

ـ الم تترك المرحومة شيئا « لمصرية » على الاطلاق !

ـ نجت المرحومة من الطوفان .. غرق الكل ونجت هى .. فذهبت بكل طهر .. وهى لم تمت .. جسدها الطاهر ستظل تسفعه الشمس حتى تعجز عن فنائه فتجعله لؤلؤة كبيرة تضىء حياتنا .

ـ شىء مفزع والله يا خالة .. ان تواجه البنت حياتها بلا سلاح ..

ـ كذب .. البنت هى الاخرى نجت من الطوفان ..

ـ كيف ؟ ..

ـ لا تملك شيئا .. لا تسرق شيئا .. لا تتاجر فى حرام .. لا تفرط فى شرف ..

هى الأخرى نجت من الطوفان .. الكل غارق .. فى كل شىء غارق فى أى شىء غارق .. فى السيارة غارق فى ثيابه غارق فى تكوينه غارق فى اكل السحت غارق .. ومن لم يحصل على كسب من هذا الزمان هو الناجى من الطوفان .

ثم بسطت يدها أمامى لاوية شفتيها فى تهـــكم حكيم . لحظتها أحسست باننى انتصب واقفا لاواجه الحياة من جديد وبكل نزق الشباب المنصرم .

مغامرات الأمير فى البر المصرى



لا تضحكوا يا صحاب ، فانا قد عشت تجربة الامارة . سمعتم طبعا بها وضحكتم حتى تعبتم فيما علمت ، اثناء انغمارى فى الامارة كانت تبلغنى اخباركم وسهراتكم وموجز لآخر الأنباء المسائية ، وكنت أشتاق للمناكفة والتعليقات الواجبة لولا أننى كنت امر باحلى وامر تجربة فى حياتى : تجربة الامارة ..

ولست أمانع فى أن احكيها لكم بكل حذافيرها ، اذا وعدتمونى بعدم تهييف ما أحكى ، أعنى بالاغراق فى الضحك .. أنا معكم فى انها مضحكة حتى النخاع ، لكنكم يجب أن تكونوا معى فى أنها — — أيضا — مبكية حتى النخاع ! ..

وانا لم أدخل تجربة الامارة دفعة واحدة ، انما سبقتها ارهاصات « ثورية » كانت تطرأ على كلمـــا نزلت الى أرض مصر الخصيبة . اتعرفون لماذا هى خصيبة ؟ .. أقول لكم ان بنت النيل عند الفيضان تفيض بلا حساب ، مثلما تنسرب مياه النيل دافقة الى أماكن بعيدة غريبة ، فتصبح ترعا واخاديد وقنوات وبساتين من العدم ، وتصنع ايضا مستنقعات كثيرة ، ذلك ان الارض غير مستوية كلها ولابد أن تحتجز الماء اما فى بقعة هابطة بطبعها واما بين عـــدد من الصخور والنتوءات الجبلية البارزة .. وهى لا تفرق بين غريب وقريب ، ولا بين أصيل ودخيل ، فهل يختار ماء النيل مهاده ؟ وهل يمنع نفسه عن أى بقعـــة بمزاجه ؟ ذلك أن مزاجه كان سلسبيلا وعملية الاندفاق الى أبعد المدى هى مزاجه ..

كنت قد ادخرت من مصروفى اليومى مبلغا امسكت عن انفاقه فى مدن الجزيرة ، ونزلت به سائحا الى أرض الكنانة وفى مقدورى أن أعيش اسبوعا واحدا على الاكثر عيشة فوق الكفاف بدرجات قليلة ، غير انى ويا لهول ما اكتشفت ، عشت بهذا المبلغ البسيط شهرا كاملا انفقت فيه ببذخ وعن سعة ، وكنت اتساءل : هل يمكن أن تكون

رخيصة الى هذا الحد ؟ اقصد ان تكون هكذا بأقل التكاليف ؟ انت هناك لا تبحث عن شيء مطلقا ، فكل شيء يجيء احد عندك ويعرض نفسه عليك سلعامدعومة من الحكومة . طوائف طوائف من الحاجيات تقبل عليك ملباة بطوائف من البشر مستعدين للتفانى فى خدمتك . ولهذا فقد احسست بعد برهة قصيرة ان الناس ها هنا يؤمروننى ، فانا الذى ارتهب من رؤية الأمير واقيم له ألف حساب ، أنا الذى لم تكن الامارة من دائرة طموحاتى بل كانت فوق مستوى خيالى ، وجدتنى فجأة اتقلد الامارة وبأرخص التكاليف .. فادركت أن الامارة هذه مسألة غير مكلفة على الاطلاق بل هى سهلة وميسورة اذا ما تواجد انسان مثلى فى ارض الكنانة فى زمن كهذا الزمن .. حسن سأقول لكم الحكاية وبالتفصيل . ارجوكم لا تتعجلوننى بملامحكم ، وهأنذا اقسم لكم بكل المقدسات اننى لا أبالغ ولا أتجاوز الواقع قيد انملة ، فهل تروننى ادلس على نفسى ؟ . انتم تعلمون اننى مكافح .. اخذت الحياة بالذراع نزلتها حمالا فى الميناء وتاجرت فى مياه البحر فلما تكون لى قرش كانت قوافل المصريين واليمنيين والفلسطينيين والباكستانيين والهنود قد اخذت تزحف علينا طالبة من يستخدمها لقـــــاء اجر يستطعمون به الحياة لكنهم من غفلتهم ومن شراقى الحرمان يشترون به كاستات واجهزة لا لزوم لها على الاطلاق . اكون غبيا اذا تركت هذه الايدى تضيع منى هباء .. افتتحت متجرا واشتريت توكيلا للسيارات واقمت ورشة كبيرة ، واشتريت قرضا بفائدة مضاعفة ، كما اشتريت تشكيلة هائلة من أولئك البشر ما بين مهندس ومحاسب ومساعد وخفير ، أطلقتهم كلهم فى ساحتى وجلست اتابع حصـــاد الآلة الحاسبة .. وفى الواقع انه لشيء مبهج حقا أن تصبح صاحب عمل وتحت امرتك من يعملون عنك .. فانا اذن لى مع الامارة تاريخ نبع من ها هنا ومن ها هنا ـ أى اننى أحمل بعض الاصالة والا ما نجحت فى تجربة الامارة ..

أقول اننى قد مكثت فى القاهرة شهرا بطولة اتمتع بلقب سمو الأمير ، ويزول عنى الحرج شيئا فشيئا حتى صرت اضيق اذا نسى أحدهم ذكر هذا اللقب ، ينحنى لى السعاة والبوابون والسفرجية والأفندية كل على طريقته وباغداق حتى أصبحت افهم كثيرا فى معنى

الانحناء وفى مختلف صوره واشكاله ، استطيع ان أؤلف كتابا فى صورة الانحناء ولا تنفذ مدخراتى من الصور التى عشتها . وفى البداية كنت اعطى لكل من ينحنى أجرا ، لكننى سرعان ما تنبهت الى أن الانحناء قائم بدفع مجهول الهوية ، فكان ثمة قوة مجهولة تدفع الأجر نيابة عنك ، وما عليك الا ان تقابل هذا كله كأنه شيء طبيعى بالنسبة لك . فلما قارب الشهر على الانتهاء وأوشكت نقودى على النفاذ قدر لى أن اكتشف جوا ساحرا وعالما غنيا يشبه الجنة بل لعله كان نوعا من الجنة بدليل أنه على مشارف الافق يتاخمها جحيم . طاب لى البقاء ولكن السفر المحتم انتزعنى من سحر التجربة قسرا ، فظل الحنين يدخر نفسه ويدخر لنفسه شهورا ثم سنوات حتى رجعت الى القاهرة الرجعة الكبرى ..

خلال الايام الاولى التقطنى ثلاثة شبان من ساحة الفندق الكبير لا أعرف كيف ، لكننى فوجئت فى لحظة بهيجة اننى محاصر بهم فى الاستراحة الكبيرة ، واننا نتبادل الحديث كأصدقاء قدامى ، والواقع أنهم هم الذين كانوا يتحدثون وكنت انا استمع كالمتفرج الذى تتلى عليه هذه الاشياء بغية امتاعه ، فأعلق أو أضحك أو اشمئز او اطلب لهم بعض المشروبات . كانوا يتحدثون فى كل شيء وأى شيء، فما عدت قادرا على تميز الحكاية من الخبر من النكتة من المأساة ، غير ان شعورا مجسدا كان ينتابنى أحيانا فأحس كما لو اننى مطالب بالنظر فى شئون الرعية ! ثم أن منظرهم صار مألوفا لدى وصرت اقبل عليهم مثلما يقبلون على . فسرعان ما نلتحم فى جلسة فى مكان ما . وقد ادعى أحدهم انه صحفى ومحرر سياسى كبير ، وادعى الثانى أنه منتج سينمائى ، وادعى الثالث أنه صاحب شركة للسيارات، وهذا الاخير هو الذى جعلنى أؤكد أنهم جميعا يدعون .. رغم ان المنتج السينمائى وجه الدعوة باسمى الى عدد من النجوم الشبان ، فلبوا الدعوة شاكرين وسهروا ليلة على حسابى ، وعرضوا امامى (نمرا) مختلفة من ملاعيبهم التمثيلية المتقنة .. ورغم أن صاحب الشركة المزعومة زودنى بمعلومات هائلة عن أنواع السيارات وطرائق استخدامها وكيفية تسويقها .. كلّ هذا قد حدث ولكننى أحس بادعائهم ربما لأنهم نجحوا فى تقليدى الامارة وانا لست منها فى شيء

.. فكنت احس كانهم يلبسوننى ثوب الامارة ليمرقوا تحت رايتى من كل حساب .. فانزعج لبرهة ويزول الانزعاج بظهور تفاهة التكلفة .. مع ذلك اسلمت قيادى لهم وقد قررت أن أعيش الامارة بحق وحقيق ، فما دام هناك من يصرون على تأميرى فلأكن أميرا ، ادفع الفتات واحصد النواة ، وعلى هذا خرجت من الصفقة رابحا ، لقد استخدمتهم دون أن يشعروا ، ظنوا أنهم يستقطعوننى وانا فى الواقع استفيد من ورائهم باعتبارهم منافذ بارزة ، باعتبارهم على الأقل حاشية تصنع الأبهة لى حتى أبيع وأتعاقد مع عملاء يحضرون لحد عندى بواسطتهم هم وبتشجيعهم واذكاء حماسهم .. وهكذا صرفت فى رحلتى السياحية الاولى مبلغا تافهـا وعدت الى متجرى بأرباح ضاعفت رأس مالى . المدهش يا أصحاب اننى تعلمت منهم كيف أستخدمهم ، فقد ردد الصحافى المزعوم أمامى - من بين ما ردد - كلمة علقت بذهنى واضاءته ، حيث قال : يقول الحكيم لا أدرى من أن الامم تقاد باستثارة شهواتهم اسهل مما تقاد بالاهتمام بمرافقها .. فتنبهت الى اننى كلما تنازلت عن بعض الهدايا اللامعة تكاثف الطابور من ورائى ووضع نفسه تحت أمرتى .

لبيت دعوة لحضور فرح ، العروس ابنة أخت خبير السيارات والعريس مهندس زراعى حديث التخرج ، وكنت اعلم ان العروس تبغى هدية محترمة وان العريس يبغى عقد عمل كما رجحت ، ومع ذلك لم اتراجع ، فاما عقد العمل فيمكن الوعد به واما الهدية فان ثمنها مهما ارتفع لن يوازى حجم بهجتى بحضور حفل زفاف مصرى ، وباعتبارى الأمير فسوف أكون نجم الحفل .

كنت قد استأجرت بواسطة خبير السيارات عربة فارهة بعشرة جنيهات فى اليوم انتقل بها . فلما نزلت الى الجاراج لأطلع بها تبين لى أن الفرح ليس فى المدينة ، وأن أكثر من عربة فارهة تنتظرنى لتقلنى الى حيث يوجد الفرح . جلست فى الكرسى الخلفى وحدى تكريما لى ، وجلس الصحفى بجوار السائق الذى هو خبير السيارات ، وتبعتنا عربات أخرى راحت تثير الفضائح على متن الطريق وهامشة صياحا وتزميرا وطبلا وزغاريد كأنهم يشهدون الكون كله على ان ثمة لحظة فرح تتحقق الآن ! ..

انسحبت المدينة وراءنا وراح سرادق الأضواء يلفظنا الى درب فى الظلام مظلل بأضواء القمر ، مضمخ برائحة الأرض الخضراء النيلية. وكانت الضجة النزقة ما تزال تبلغنا من السيارات الخلفية التى تداعبنا فتقتحمنا فجأة ثم تتجاوزنا ثم نتجاوزها مرة اخرى ، ورائحة العطور النفاذة تنبعث رائحة غادية فتثير النشوة فى عروقى . ثم اخذنا ندخل فى سرادقات ضوئية جديدة فنخترقها فاذا هى مدينة سرعان ما تلفظنا من جديد الى الدرب المظلل بضوء القمر .. فعرفت أن الفرح مقام في قرية صغيرة فى منطقة بعيدة .. واحسست كم هى واسعة وشاسعة ارض الكنانة .

بعد ساعات امتزجنا فيها بالليل الاهبل الهايف التحقنا بليل آخر أميل الى الرصانة والعمق ، خرج هذا الليل لاستقبالنا فى منتصف الطريق الى القرية الغائصة فى سفح جبلى كحصن مكين ، واخذت العربات تهبط فى طريق مرصوف نحو مدخل بدا انه مدخل حديقة ظلت العربات تجتازه لفترة طويلة وعناقيد الضوء الكهربى الملون تصنع تاجا من الدر والياقوت ، فعرفت أننى المعنى بشكل التاج هذا ، وانه حركة موجهة الى وحدى . وكنت أرى على الجانبين حظائر من السلك والخشب وخلايا نحل أنيقة ، وبحيرات صغيرة واحواضا مزروعة ، واشجارا وحدائق ، وابراج حمام فى الخلفية البعيدة تنحشر بين شرفات عالية ، وسمعت نقنقة دجاج وخوار أبقار وهديل الحمام وثغاء ماعز .. فأدركت اننى فى مزرعة كبيرة . فلما تجاوزنا هذه المدينة السحرية الصغيرة ونحن لم نزل على نفس الممر طالعنا الهدوء من جديد شاملا وموسيقيا . ثم انحرفت العربة قليلا واستقرت تحت تعريشة أنيقة قائمة على عمدان من الحديد المصقول .

ثم نزلنا وأصوات ابواب السيارات وهى تنغلق خلفنا تصنع صوتا خفيفا كأنه ازناد البنادق ، وكانت شرفة القصر عريضة عملاقة دائرية تزدان حافتها بأفرع الضوء ، وتنسكب منها وجوه ساطعة تنطلق منها عيون تتزاحم وتتقافز وتجوس بيننا باحثة مدققة مشرئبة ، فأدركت انها تبحث عنى ، ثم انها استقرت جميعا على حينما تراجع الركب كله أمام الدرج وقدمنى ، فمضيت اجرجر أطراف (الدشداشة)

مطوحا يمناى فى وقار كأننى اصعد الشرفة لأخطب فى رعيتى ، وما أن صافحت قدمى آخر الدرج حتى انبعث تصفيق حاد مرح تطايرت خلاله الزغاريد فأيقظت أسرابا من العصافير وسابقتها فى الرفرفة بنشوة حيرى . من خجلى صرت أبحث عن العريس الحقيقى الذى كان قد انزوى فى آخر الركب مهملا يتفرج بانبهار .

سرحت يدى وجالت بين كتل من الايدى على مختلف انواعها مسلمة مستشعرة الحرارة الساخنة ، وكان لابد لسمو الامير الذى تنازل وشرفهم بالحضور ان يقول كلمة بهذه المناسبة . ولم يكن ينقص طقوس الامارة الرسمية فى هذا الحفل الكبير سوى كاميرات التليفزيون ، وفيما عدا ذلك فقد حاصرتنى أجهزة التسجيل والتصوير ، وجاءت العروس وسلمت على وقدمت لى طاقية من الصوف ومنديلا من الحرير لم أرى فى حياتى مثيلا لأناقتها ، فأعطيتها بدورى علبة مجوهرات مفتوحة يطل منها خاتم سولتير ، هدية صغيرة لكنها تليق بأمير ، ورغم اننى كنت استكثره فى البداية لكن علو مستوى الحفل المضيف قلل من قيمته فى نظرى ، ثم جاء دفء اللقاء وما أغرقنى به من حب فصار الخاتم فى نظرى بلا قيمة .. فطلبت رؤية العريس .. فجىء به الى يتعثر فى الزحام والخجل ، وسلم على بحرارة ، فخلعت من يدى خاتما كبيرا وقدمته له ، فهاجت المشاعر من جديد هياجا دافقا بالحماس والعاطفة البدائية المتوحشة ، وحينئذ تقدم منى رجل يربو على الخمسين من العمر ولكنه متين البنيان رشيق الحركة ممتلىء بالنشاط والبهجة ، وأحسست انه صاحب هذا البيت ، اذ أحاط كتفى بذراعه ودفعنى برفق الى الداخل ..

صرت فوق بساط على ارض من الخشب خلال ساحة واسعة تطل عليها ابواب وتشكيلات ديكورية وتمتلىء بالألوان المزدانة بتحف وعناقيد ذات عراقة فى الأبهة . فى المواجهة سلم خشبى عريض ذو درابزين مخروط . أذن لى الرجل بالصعود فتقدمت صاعدا فاذا بى فى صالة مستطيلة مفروشة كلها بأرقى الاثاث وفاخر البسط ، من السقف تتجلى قطع النجف كغابة من السحر الشفاف. جلست فى صدر المكان وجلس الرجل بجوارى ، ثم توارى الجالسون

زرافات ووحدانا حتى امتلأت القاعة وتلالأت الابتسامات المشرقة على الوجوه . ومدت الينا اكواب الشربات على صوان من الفضة الخالصة، وتلكأ امامي السفرجي بطربوشه وقطنيته ذات الحزام ، وامطرنى بالتحيات والدعوات ، فعبثت يدى المرتعشـــة فى جيبى وانتزعت ورقة مالية جديدة اطبقتها ، وقبل ان ادسها فى حزام السفرجى اختلست نظرة اليها فتبينت انها من فئة العشرين جنيها فشكنى دبوس الغضب شكة صغيرة سرعان ما نسيت المها فى نظرة الانبهار والتقدير والاكبار التى انتشرت على الوجوه ولست أعرف كيف تسرب خبر هذه الورقة في الحال الى اقصى القاعة رغم أننى حاولت كتمانه بحركة يدى السريعة .

مال الرجل نحوى براسه وقال مبتسما :

ـ سرقت منى الاضواء يا سمو الامير هذه الليلة . ابتسمت بدورى وان كنت لم افهم على التحديد مقصده ـ غير أننى فوجئت بالصحافى وقد بزغ فى المقعد المجاور لى مبـــاشرة ، وكأن حركة تنقلات سريعة قد حدثت فى لمح البصر ليجىء هو بجانبى ، وامتطت رقبته نحوى مشيرا بيده الى الرجل .

ـ الأستاذ فتح الله العوضى .. من كبار السياسيين القـدامى وعضو مجلس الشعب .

ورغم أننى لم اكن قد سمعت فى حياتى بشىء عن العوضى الا اننى هززت راسى فى حماس كأننى اعرفه جيدا . وقلت :

ـ طبعا أخى .. طبعا .. نار على علم .

فانبرى الأستاذ العوضى وراح يحكى لى مغامراته مع الملك ومع جمال عبد الناصر ، وكيف انه ـ الوحيد ـ الذى قال لا ، وادان بذلك عصر عبد الناصر فى مذبحة القضاء ، وقال ايضا انه من كبار الوفديين وانه قد آن الأوان ليسترد الوفد قاعدته الشعبية العريضة ويوقظ ماضيه السياسى الحافل .. فجاءنى احساس حاد بأن هذا الصحافي لابد ان يقوم من جوارى ، واخذت أدبر لازاحته ، وأدبر ايضا لاصطياد هذا المحامى الكبير لعـله يصبح واحـدا من عملائى ولعلنى بقليل من الحيلة أصبح شريكا له فى هـذه المزرعة الـكبيرة الحافلة . لكن الحفل لم يعط فرصة لذلك . فسرعان ما دعى سمو

الامير ـ الذى هو أنا ـ لتناول العشاء . وكان عشاء يليق بسمو الأمير حقا . مائدة طويلة عليها صنوف الذبائح والوان الأطبـــاق والزجاجات وكان الأستاذ العوضى قد تفرغ تقريبا لمراقبتى واثارة شهيتى للطعام . وقد سرب فى حديثه عبارات سريعة مقتضبة فهمت منها ، أنه خال العروسين اى ان الولد يتزوج ابنة خالته ، كمـــا فهمت أيضا أن لديه بعض المشروعات التجارية والصناعية الكبيرة .. فبيت النية عليه ولم أعلق بشىء .

ثم اقتيد سمو الأمير ـ الذى هو انا ـ الى القاعة من جديد .. وجلسنا ندخن وقد اقتحمتنا أصوات آلات موسيقية خافتــة مقبلة من الشمال الشرقى .. ثم طلب منى أن أتقدم لتحية الفرقة الموسيقية ، فسرت خلف الأستاذ العوضى حتى خلصنا الى شرفة فى الشمال الشرقى تناثرت بهـــا كراسى من الخيزران تطل على مساحة شاسعة مسورة بجدار من الأسمنت تظلله الاشجار ، أقيم عليها صوان غير مسقوف ، وفى المواجهـــة مسرح ارتفعت فوقه الفرقة الموســـيقية ، وامام المسرح عشرات الصفوف من الكراسى جلس عليها عشرات المدعوين .. فما أن ظهرت فى الشرفة ورفعت يدى بالتحية حتى انضبطت الفرقة فى الحال وعزفت السلام تحية لى ، ثم انعطفت الى أنغام راقصة مبهجة يقــودها الاكورديون . وخرجت من الكواليس راقصة يتلألأ فستانهـــا بالترتر وينجاب عن ساقيها ، كانت كأنها تواصل رقصا بدأته خلف الكواليس من مدة طويلة ثم قفز وراءها شاب أنيق جدا مفروق الشعر محزق الثياب ذو صوت رخيم راح يداعبها بألحان راقصة ، ثم هدأ فجاة وغنى موالا ركز فيه على جملة تقول : « املا كلامى تحية والمسا واجب .. على ناس امارة وكمل يفهموا الواجب » . فما ان أتمها حتى قفز على المسرح رجال راحوا يتسابقون فى اللهج باسمى فوق المسرح شاهرين أوراقا مالية كبيرة ، والولد المطرب يلهث ويعيـــد على مسمعى أطنانا من عبارات التبجيل والتعظيم حتى اشفقت عليـــه ورثيت لهم جميعا . وكان لابد لى ان اظهر بما يليق بسمو الأمير ، فمددت يدى فى جيبى ورحت أعبث بالورق متمنيا ان تصطدم يدى بورقة صغيرة بعض الشىء ، ولكن حركة يدى بقدرة قادر وصلت الى

المسرح .. فاذا بالراقصة تهبط عن المسرح وخلفها الطبال والمزاهرى، تجوس بين المدعوين مقبلة نحو الشرفة الى ان اختفت فى ظلها ثم حودت ثم فوجئت بها صـــاعدة من سلم خارجى ومقبلة نحوى ، فاوسعوا لها رحبة صغيرة فزحفت عليها وادت فاصلا من الرقص اطار لبى ، واسال عرقى ، فدفعت اليهـــا بورقة اخرى من فئـــة العشرين جنيها ، فالصقتها بجبهتها واســـتانفت السير عائدة الى المسرح فلما وصلت شرعت الورقة امام المطرب وراحت تستدر هتافة باسمى ما يزيد عن نصف ساعة .

استغرقتنى مظاهر البذخ حتى احسست بالسأم يتسرب الى .. الا اننى فى لحظة الشعور بالسأم رايتهـــا ، اقصد رايت عينيها السوداوين تبعثان نحوى اشعة من لهب مضىء ، عينان واسعتان تطلان من فتحة باب الشرفة ، فيهما طموح نبيل ورغبة فى الارتفاع وتمن . رغما عنى صرت اختلس اليهما النظر ، فلما ظهرت امامى تبين لى انها طفلة فى الثالثة عشر من عمرها ، غلامية الوجه والقوام ترتدى فستانا متواضعا يكشف عن قدرة الله العظيمة فيما يغرينا بولوج النـــــار . كانت تمشى الى آخر الشرفة وتبعث بصرها الى السور المعرش وتمط رقبتها وتتكلم ، فدققت فرايت وجوها كالحة تطل من فتحة فى تعريشة السور ، ثم يتبين لى أن جدار السور المعرش لم تكن سورا ، بل كان كتلا من الأجساد والوجوه التى وقفت تتفرج يابسة خائفة من الطرد ان هى عبرت عن فرحها مع الأفندية ـ وخيل الى اننى نزلت فى عصر وليس من مكان ، واننـــا فى عصر ما قبل ثورة يوليو المصرية . ثم ان الفتاة الغلامية ذات العيون السوداء الواسعة اقبلت من جديد فسحبت عنقى وراءها حتى اختفت .. وفوجئت بالصحافى يهبط على وبأنفاسه تطوف حـول اذنى هامسة بأننى لا يجب أن آخذ كلام المنتج السينمائى على محمل الجد ، فقلت له : اى كلام ؟ . قال : اى كلام ! . فانصرفت عنه الى الراقصة . وبعد برهة فوجئت بالمنتج السينمائى يجلس أمامى ويميل هامسا بأننى يجب أن احترس من خبير السيارات والا اغتر بهذه المظاهر ! . فانصرفت عنه ايضا فتسلل خارجا . وان هى الا برهة حتى أقبل خبير السيارات فحيانى بكأس وهمس لى اننى يجب

ان اكون على حذر من الصحافي ولا أصرح أمامه بشيء ، فأحسست بمغص فى بطنى ، وعرفت لماذا يمكن أن يصبح رجلا مثلى أميرا فى مصر ، بل وحاكما ان أراد .

ثم جاء الاستاذ العوضى ودعانى الى جلسة هادئة نتكلم فيها . فقمت واتجهت الى حيث أشار لى . دخلت بابا موشى بالستاير الحمراء .. فوجدت نفسى ـ انا والفتاة الفلامية ذات العيون السود ـ فى غرفة واحدة !

وقفت مسمرا . كانت تنظر الى فى شىء من الانبهار . دققت النظر فى انسانى عينيها ، احسست انه ليس انبهارا بل هو نوع من الاستهانة أو الاستخفاف . داخلتنى نشوة طاغية من هاتين العينين اللتين تستخفان بى وتتحديانى اذ هما من حيث لا تدرى تثيران فى الرغبة فى قهرها . تقدمت منى حاملة طستا وابريقا من النحاس ..

ـ تبغى الوضوء ! .. لدينا مياه فى الحنفيات ولكن ربما احببت الوضوء فى مكانك ها هنا ..

ـ الوضوء !!

وكتمت ضحكة كانت حرية بأن تكشف عن سوقيتى ، وبدا أننى متورط وظهر فى عينى الفتاة ذكاء شارخ . كان من الواضح انها موقنة باننى لا اصلى ، لدرجة انها همت بالخروج . آلمنى ذلك . قلت لها :

ـ « تعالى يا بنت » .

فنظرت الى مرتاعة وقد تحولت عيناها الى ثقبين منفتحين على الجحيم :

ـ « بنت ؟ .. يعنى ايه بنت ؟ » .

ثم وضعت الطست فى الأرض بهدوء كأنها تستعد للعراك معى :

ـ « فاكرنى شغالة ؟ » .

فضحكت انا كما ضحكت هى ، وأحسست بسعادة غامرة لا اعرف لها سببا . وكان من الواضح أننى نسيت مسألة الوضوء هذه ، حتى أن طقوسها وحركاتها البسيطة بدت لى مشكلة كبيرة ..

قالت الفتاة ببراءة :

ـ.الناس عندنا يتصورون ان كل الأمراء يؤدون الفرض بفرضه !

وفهمت من نبرة صوتها عكس المعنى الذى تقول . مع ذلك قلت نعم هذا حق . وعدت فقلت نعم نعم وهل هناك شك فى ذلك . ثم اخذت أشمر أكمامى ، ورحت أتوضأ . فى هـذه اللحظة دخل الأستاذ العوضي حاملا سجادة الصلاة . حاولت ايجاد مدخل لتملق الفتاة . قلت للأستاذ العوضي بينما انا أتوضأ ، ابنتك هذه يا عوضي بيك ؟ .. فصفعني من الفتاة رد لم أكن أتوقعه ، قالت مع ابتسامة متحدية :

ـ الناس عند الوضوء تقول اشياء اخرى .. أم أن سمو الأمير نسى ما يقال عند الوضوء !

لحظتها ميزت بين مياه الوضوء وبين عرقى ..

ضحك الأستاذ العوضي وقال ببساطة :

ـ لا ينزعج سمو الامير من لماضة لمياء .. فهى لطيفة وكلنـــــا نحبها .

انهيت الوضوء كيفما اتفق ، وقلت :

ـ بالعكس انا سعيد جدا بلمياء ..

وفى لمح البصر كانت لمياء قد حملت الطست والابريق وانصرفت وارتفع داخلى صوت قوى يقول : « ليس الحجاب بالنسبة للفتاة ان نغلق عليها باب الحريم ونلفها فى الثياب من اخمص قدميها الى رأسها .. انما الحجاب الحق تصنعه الفتاة بنفسها حتى ولو كانت عارية » .

وايقنت فى الحال أن لمياء قد افتتحت من نفسى منطقة مجهولة فقلت للعوضى بيك :

ـ ابنتك ؟

قال انها مثل ابنته واكثر ، فهى فى الواقع ابنة سائق سيارته ، وانها فى الاعدادية ، وان اباها الأسطى « ابراهيم الفرابلى » قد سماها لمياء حبا فى اسم شقيقة العوضى بيك . ذلك أن « ابراهيم الفرابلى » ينتمى الى اسرة العوضى بيك منذ سنوات طويلة انتماء يتوارثه أبا عن جد ؟ ..

ثم افترش السجادة وأشار لى قائلا :

ـ تفضل .. اقم الصلاة يا سمو الأمير ..

فاقمت الصلاة .. واصر على ان يقدمنى للامامة . فاعتـــذرت بشدة ، لا لشيء الا لكونى غير صالح لهــــذه المهمة ، فانا بالكاد أستطيع تادية الصلاة كاى مسلم عادى اما ان اكون اماما فهذا ما لم يكن يخطر لى ببال . وقلت للعوضى بيك ان فارق السن بيننا يحتم أن يتقدم هو ليؤم الصلاة ، ولكنه اصر .. فلم أجد بدا من الموافقة ولم اكن متوترا فى حياتى مثلما كنت فى تلك اللحظة ، حيث اخاف أن أخطىء فى الصلاة فيكون منظرى غير سار أبداً . وما شغلنى فى الدنيا خوف مثل شغلى بختام الصلاة ، فهى التى ستكشف جهلى . ولكن العوضى بيك تكفل بها وحدة بصوت عال وخيرا ما فعل اذ أننى اضعت همساتى فى صوته . تلقيت لثمة يده بلثمة من يدى استائنفتها على شفتى . ثم نهض فنهضت معه . وقدمنى الى الباب . فخرجت . استقبلنى الباحة المباحة فاغرتنى بالتجوال دونمــا حرج ، وكنت قد تشربت الامارة على التمام فحق لى أن اتصرف كما يحلو لى فالبيت بيتى وان لم يكن بيتى ، والحفل حفلى وان لم يكن حفلى ، والأهل ليس فقط اهلى أو عشيرتى بل هم تحت امارتى ، لحق بى العوضى بيك وتقدمنى الى ممر كأنه فى ســـفينة عائمة ، وعرجنا الى « قمرة » انيقة أبن منها قمرة « الربان العظيم » ، قال وهو يدفع بابها انها حجرة مكتبه ، حيث يكون قد انتهى من لقاء « الجماهير » وفرغ من دوشتهم ، صحيح أن هناك من يضطلع بمهمة الاستقبال وتصريف الحاضرين الى الخارج باى شكل ، وان زبدة المواضع تنصله ملخصة فى ورقة صغيرة ، وربمــــا جملتين على الشفاة ، وربما هزة راس على سبيل الاستهانة .. صحيح كل هذا ولكن حتى هذه الزبدة تقتضى منه شغلا لا ينبغى أن يجور على شغله الخاص ، فهو صاحب مزرعة كبيرة كما أرى ، ولديه مكتب للاستيراد والتصدير ، ومعرض للسيارات ، وبضعة أرتال من العجلات ترتع على الطريق بين القاهرة وبور سعيد .

احاطت نظرتى بكل شيء فى الحجرة ـ القمرة .. فقاعة شرقية بـكل معنى الـكلمة شلت من الجلد المزخرف وصوان من الفضة اللامعة عليها اطباق وقوارير ، ودواليب من الأرابسك عجوزة وصلبة

وتريد أن تتكلم معك ـ على الشلتة المستطيلة جلست متكئا على شلته أخرى عالية ، وجلس العوضى بيك فى مواجهتى ، وكان الضوء العليل المنبعث من فتحة فى خشب السقف ينعكس على صلعته الانيقة ، ويضفى على ملامح وجهه ظلالا من الرقى ، والهيبة ، حتى صوته الرصين يتمازج بلسانه الفصيح المتين . فكأنه واحد من العرب القدامى جدا جدا . واحد من البطون البعيدة لا يستطيع عصر كعصرنا الهزيل أن يبتلعه ، فيبتلعه هو . دهمنى احساس قوى بأننى مجرد سمكة صغيرة غشيمة تتخبط بين أمواجه العاتية . مع ذلك كنت سعيدا وفرحا فرحة المدى البعيد ، فرحة الاحساس بالخطر الداهم الذى من فرط خطورته صار أمنا ، فان تتخبط بى الأمواج هائجة مائجة فلست الا كيانا جزئيا اقل ما يمكن أن يكون من مستوى النظر .

قال العوضى بيك وهو يشعل لى سيجارتى بولاعته الذهبية :

ـ مرحب سمو الأمير .

دهمتنى ولاعته الذهبية وانا الأمير استخدم ولاعة كحيانة . وقررت أن اتشبث بالامارة الى أعلى درجة ، خوفا من السقوط المحقق باستمرار المحاولة مع العوضى بيك . وقد الهمنى الله عادة من عادات الامارة الاصيلة ، ان يجلس الأمير فى وقار كبير ويستمع فحسب ، وليس مطلوبا منه أن يناقش أو يجادل ، انه اما ان يأمر أو ينهى او يقرع ، واى مخلوق امامه .. أيا كانت شخصيته ومهما كانت قيمته ـ فهو مشمول بأمارتى . وهكذا تربعت فى مطرحى وتركت العوضى بيك يتحدث ، حديثا ممتعا فى الواقع ، ومغريا بالاستماع ، بل انه بالنسبة لى كان مثل الدينمو يشحن رأسى ووجدانى بمعلومات عالية المقام واذواق فى السلوك رفيعة المستوى ، ولكن آه من خطورته ، آه لو تحدث المعجزة ونتآلف معا فى لحظة تفاهم يعترف فيها بأمارتى ولو كانت زائفة ، حينئذ نصير أصدقاء لا يقوى الزمن على التفريق بيننا ، فقط يعفينى من اثبات امارتى ، يعفينى من اثبات النسب ، وفى نفس الوقت يعاملنى باعتبارى أميرا ، اننى لا اطلب منه سوى أن يحتفظ لى بما للأمراء من حقوق وواجبات ، والخوف كل الخوف ان يعرف حقيقتى واننى مجرد صاحب متجر للسيارات نصف رأسماله كمبيالات وشيكات تمر بدورات مرسومة بدقة ، اننى اذن أتحول فى نظره الى صبى من صبيانه ويكون هو

المعلم الذى يجنى كل الفائدة ، انه طاقة كبيرة وانا لا يجوز أن احصل من ورائها على الفتات .. اننى لست صاحب عمل يستخدم أمثاله من المصريين فحسب بل انا امير ، والوضع الطبيعى أن اكــون أنا صاحب العمل ، والعوضى بيك ترسا من تروسه ، ماذا لو فاتحته فى الامر ، حسن أنا باعتبارى أميرا من حقى أن أتجرأ وأفاتح اى مخلوق فى اى أمر بكل حرية ، يمكننى مثلا ان اقول للعوضى بيك بجلالة قدره : « لك وظيفة عندى » .. الافضل ان أقول له : « ايه رايك لو أناجيت أستفيد بخبرة سيادتك » .. لا .. الأمراء لا يقـــــولون هكذا .. انهم يأمرون بلهجة مهذبة كل على قدر مقامه ..

ــ كنت أقول لو أن العوضى بيك .. لا سمح الله يعنى .. أقصد اننى .. اكون سعيدا لو أن العوضى بيك تفضل وقبل مشكورا أن يكون .. يكون .. مديرا كبيرا لأعمالى .

عينا العوضى بيك مثل خرزتين كبيرتين مسمرتين فى ثقبين فى وجهه لم أقو على مواجهة البريق المنبعث منهما ، أشعلت سيجارة وأنا اتوقع أن العوضى بيك يدبر لى ردا حارقا رادعا يعلمنى به الادب جزاء هذه اللعثمة واللجاجة التى تفوهت بها . لكنى فوجئت بأن العوضى بيك يبتسم بعمق حيث تكرمش وجهه واختفت عيناه تماما من وجهه حتى كأن لم يكن لهما وجود من قبل ، انتهزت فرصة غيابهما واستطردت :

ــ قلت ايه يا عوضى بيك ؟

فجأة انفرج وجهه وانفتح الثقبان فأطلت الخـــــرزتان وراحتا تتماوجان . ثم انه وضع ساقا على ساق وقال باحترام شديد :

ــ أنا خدامك يا سمو الأمير .. أنت تأمر ..

كدت أنتفض صائحا من الفرح :

ــ اذن فأنت موافق !

ــ نعم لماذا لا ولكن ..

اهتز قلبى فكان اهتزازته هى التى قاطعت العوضى بيك فصمت ناظرا الى بجانب عينه نظرة ذات معنى ..

ــ لكن ..

وصمت أنا الآخر منتظرا .

ــ أيستطيع سمو الأمير ان يدفع مرتبى ؟

غاص قلبى فى الأرض . قال صوت فى داخلى : « لا والف لا » .
وقال ضوت على لسانى :

ــ ان سيادتكم لا تقدرون بمال .. ولكن .. ما تأمرون به كمرتب لن يسعنى الا الموافقة .

ابتسم مرة أخرى ابتسامة عجوزة ناضحة بكل نظرته الحقيقية لى ، ابتسامة احسست انها وزنتنى وقدرتنى على الدقة والتحديد ، ولم يكن ينقصها الا النطق قائلة : « أنت كداب » . لكنها لفرط حكمتها نطقت بقول آخر :

ــ الواقع يا سمو الأمير ان مرتبى الحقيقى لا يستطيع اى عمل فى الدنيا ان يفى به سوى اعمالى انا الخاصة .

فضلت أن اعتقل لسانى خوف النزول الى خيبة أخرى ، واكتفيت بهز راسى علامة التأييد لكلامه ..

ــ ولكن ..

ثم صمت ، وقالت ابتسامته « ولكن مرة أخرى » .

فقلت : أهيه ..

ــ اذا كان لسمو الأمير أن يستفيد من خبراتى ومن مشروعاتى فالأجدى له أن يفعل مثلما نفعل نحن الفلاحين ها هنا .. وهو منتهى الحكمة .

قلت له ملتهفا ..

ــ وما الذى تصنعونه ؟ ..

قال وهو يترك السيجارة ليشعل البايب :

ــ هناك ناس على شاكلتنا من الفلاحين لا يشتغلون بالفلاحة ولديهم اموال يريدون لها النمو الخصيب .. فيقوم الواحد منا بشراء عدد من الأبقار والجاموس ويوزعها على بعض الفلاحين .. أنت فلاح ولديك حظيرة وحقل وشغلتك الفلاحة .. فلأشترى لك بقرة أو جاموسة أو ما تحتمله قدرتك على الرعاية .. ثم تتكفل أنت أيها الفلاح بالتربية والرعاية ، وما تدره الابقار من لبن أو تلده من عجول يكون ربحا تستحق ثلثه .. وهكذا ترى نفسك فى ظرف ربيع أو ربيعين قد تضاعفت حظائرك . وهذه انجح وسيلة لمضاعفة راس المال ونموه بسرعة ، فهو مشروع لا يكفلك اى مشاغل ادارية أو مشاكل عمالية أو مفاجآت ضرائبية .

قلت له بغاية الفرح :

ـ تريدنى ان افعل ذلك ؟
قال :
ـ لا .. اذا كان سمو الأمير يريد أن يستثمر بعض ماله فعليه ان يسلمه لى . وأنا التزم بتسليمه نسبة مئوية تصل الى الخمسين فى المائة فى كل عام ! .. خالص الضرائب .. لأننى سأقيم مزرعة معفاة من الضرائب خمس سنوات .

قلت له اننى موافق وما عليه الا أن يعطينى مهلة قصيرة اتدبر فيها الأمر بقليل من الروية ، وقلت له أيضا أن أموالى على كثرتها تعتبر قليلة بحكم قلة خبرتى فى التجارة ، فليس من عادة الامراء التجارة . وهنا نظر الى العوضى بيك نظرة عرتنى من ثيابى ، مع أنه قال « أى نعم .. الامارة خلاف التجارة » . ثم لذت بالصمت من جديد وعاد هو يتحدث عن تاريخ العرب ، ابتداء من معنى كلمة عرب ، حتى ما يسمى بأزمة الشرق الاوسط . وكان يجرنى جرا الى ان اتحدث عن عائلتى ، وأن اذكر له نسبى كاملا ، وكنت أهرب منه بفتح موضوع جديد . لكنه بلباقة شديدة قدم لى « أجندة » مكتبه قائلا :

ـ اذا تفضلت فاكتب عنوان سموك هنا لكى أتصل بك عند اللزوم .. أم ان فى هذا ازعاجا لسمو الأمير ؟ ..

عندئذ انشرخ السكون واقتحمتنى ضجة الفرج من الساحة الخلفية ، ورغم انها لم تنقطع الا اننى كنت قد نسيتها . وكانت « الأجندة » قد انتقلت الى يدى ، التى راحت ترتعد .. وكنت أفكر : هل أكتب اسمى الحقيقى أم ازيف اسما يتصل نسبه بنسب الأمراء الحقيقيين ؟ ان الرجل الجالس أمامى يكاد يعرف أسماء العائلات العربية فردا فردا ، وأى ادعاء جديد امام مثل هذا الرجل أمر غير مضمون العواقب ، مع ذلك تذكرت أننى أمير ويجب أن أسلك سلوك الأمير ، فنحيت « الأجندة » جانبا فى هدوء وأشعلت سيجارة وقلت له أننى سأعطيه بطاقة فيها كل ما يريد . وهنا تدخلت العناية الالهية وانقذتنى من ورطتى ، اذ طرق الباب فصاح العوضى بيك : ادخل .

فدخلت « لمياء » حاملة صينية عليها بعض أصناف الفاكهة النادرة، وحينما انحنت لتقدمها أمامى خيل الى أن الأرض تميل كلها معها ، ثم استقام عود الفتاة من جديد فأخذت أبحث عن عينيها الى أن

التقطتهما فوجدت اننى احب ان اراها على الدوام ، صحيح أننى متزوج وعندى أولاد ، ولكن لا بأس من رفيقة مصرية ، هناك رجال من بلادنا يتزوجون من مصريات ، فالزواج من المصرية ربما كان اسهل زواج فى الدنيا ، ذلك انهـا لا تحب الا أن تعيش مستورة فحسب ، أما أنا فلست احبذ هذه العادة ، فما كان الحصول عليه ميسورا بدون قيود او التزامات فمن الخطل وضع الانسان نفسه فى القيود والالتزامات ، ان المصرية فى هذه الآونة غيرها فى أزمنة سابقة ، فى الماضى كان الزواج منها رقيا وتمدينا ، الآن اختلف الامر وأصبح الزواج منها تفضلا ، ذلك انهن كثيرات ، ومن ثم بلا ثمن ، وواحدة كهذه بالنسبة لواحد مثلى تعتبر نزولا ، فأنا ان لم اكن اميرا حقيقيا فاننى — بالنسبة لها على الأقل — أمير واى أمير ، ثم انها ابنة الاوسطى « ابراهيم الفرابلى » ، والامر ببساطة يمكن أن يتم عن طريق السيطرة على ابيها .. ماذا يعطيه العوضى بيك مرتبا شهريا ؟ .. لأعطه أنا أضعاف أضعاف ، اعطيه ما يماثل مرتب العوضى بيك نفسه ، يمكننى أيضا أن استدعى « لمياء » للعمل فى متجرى بمرتب يجعلها تنبذ التعليم وتنصرف عنه .. أننى مستعد للتنازل عن كل شىء الا عن رغبتى فى امتلاك هذه الفتـــاة وقهر ذكائها و « لماضتها » ..

اختفت « لمياء » وطرق الباب مرة اخرى قبل أن استجيب لدعوة العوضى بيك فى تذوق الفاكهة . دخل المنتج السينمائى يتلصص على حذر ، ثم استأذن فسمح له بالجلوس ، وقال بلا مناسبة انه يبحث عن الصحافى . وان هى الا برهة وجيزة حتى دخل الصحافى دون استئذان وصـــاح فى غوغائية بصوت مهووس « انت فين يا جدع » . فنظر العوضى بيك اليهما نظرة ذات معنى لم أفهمه . ودون استئذان أيضا مد الصحافى يده وراح يتذوق الفـــاكهة بنهم ، ثم نظر الى المنتج السينمائى وقال بلا مناسبة :

— بالمناسبة عملت ايه فى الفكرة اللى اقترحناها سوا ؟

فانبسط وجه المنتج السينمائى ونظر الى العوضى بيك :

— التكاليف كثيرة .. ولابد من ممول أو شريك .

فقال الصحافى :

— ما راى سمو الأمير ؟!

قلت : فى ماذا ؟

قال بأن هناك مشروعا لانتاج قصة العوضى بيك فى فيلم سينمائى، أو حلقات تليفزيونية ، وهى قصة كفاح عظيمة ، ونضال سياسى مرير ، يكفى أنه الوحيد الذى قال : لا ..

استسخفت الفكرة من اساسها ، مع ذلك داخلنى شعور بالبهجة لمجرد اكتشاف لوجود المنتج السينمائى فى هذه اللحظة ، فبحماس شديد أخذت أبدى اعجابى بالفكرة ، وباستعدادى للمساهمة فى انتاجها ، ذلك أننى احسست أن المنتج السينمائى ، بهذه الفكرة ، يمكن ان يكون مدخلا الى « لمياء » . فأردفت قائلا له :

ـ أصبحت أنافسك فى اكتشاف الوجوه الجديدة .. واليوم اكتشفت نجمة يمكن أن تلعب دورا فى قصة حياة العوضى بيك .

وجموا جميعا . ونظروا الى بعضهم البعض ، وتساءلوا : من هى ؟ . فقلت دون حرج وببساطة جادة :

ـ لمياء .. التى كانت هنا منذ لحظة .

فهتف المنتج السينمائى فى فرح :

ـ أنا مستعد .

وهتف الصحافى :

ونظر الى قائلا فى حزم :

ـ ويمكن أن تعمل على اشهارها منذ الآن وامتعض العوضى بيك !

ـ لا .. دعك من لمياء هذه .. انها لن توافق .. وان وافقت فأنا شخصيا لا أوافق !

ـ لماذا تقف أمام مستقبلها ؟

هكذا قلت . فرد قائلا :

ـ انا الذى يعرف مستقبلها .. ولا داعى لمناقشة هذا الأمر .

فأحسست نحوه بكراهية شديدة . واستيقظت فى أعماقى شعور جارف بالتحدى .

اقترب لغط منغوم صحبه هياج مفاجىء ما لبث أن راح يخفت شيئا فشيئا ، وعرفت أن الحفل قد حصل أخيرا على خصوصية ، وأن المدعوين قد انصرفوا وعادت العروس الى داخل البيت ليقوم أهل البيت بأداء دورهم فى التعبير عن فرحهم بطريقتهم الخاصة ، استأذن العوضى بيك وخرج ليشرف على تنظيمهم فى الباحة . ثم دخل خبير السيارات متهالكا متهدل الثياب ، وقال لى أن نصف عمرى سيفوتنى اذا لم أقم واتفرج على الحفل الحقيقى الذى بدأ .

رحبت على الفور خوفا من عودة العوضى بيك ، ونهضت مستعدا ، فاقتادنى خبير السيارات الى الباحة وخلفنا الصحافى والمنتج السينمائى .

كانت آلة « الأكورديون » قد توهجت وأخذت تجود بأحلى ما فى جوفها من انغام راقصة . والطبلة والرق يصاحبانها لتنضم اليهما « السلامية » ثم « الأرغول » .. وكانوا يشكلون دائرة واسعة ، وكانت هى — لمياء — بلحمها وشحمها ، قد تحولت الى غصن بان يتراقص رقصا لم اشاهد مثله فى حياتى ، كانت تملؤنى بهجة واصرارا ، وتشد الزغاريد من الحناجر شدا .

انتم تعرفون اننى لست مراهقا ، وأؤكد لكم أن لمياء فى تلك اللحظة لم تكن تثير فى شعورا بالمراهقة ، بل لم تكن توحى بأى خلاعة ، انما كانت برقصها تعبر عن فرح حقيقى ، حتى أننى فى وقفتى — لولا ان تذكرت بأننى أمير — كدت أهبط الى الدائرة وأرافقها فى كل حركة .

ولقد بت ليلتى مفعما بكثير من المشاعر الجديدة على ، ممتلئا برغبة لا حدود لها فى البذل ، وبالمقابل فى جمع ثروات طائلة ، وعجبت كيف يكون تحقيق الامارة سهلا هكذا فى حين يصبح الاستحواذ على فتاة كهذه مشكلة تؤرقنى . فلما ايقظونى كانت الشمس قد جنحت الى الاصفرار ، وحينئذ استطعت أن أرى القرية .. من ضجعتى على السرير مسندا رأسى ، وعبر نافذة جانبية رأيت القرية من بعيد تنكفىء على نفسها ، كتلة من الطين الاسود تتخللها ابنية مستطيلة تشبه الابراج وما هى بأبراج . كان الفقر المدقع يعصب وجهها بتعاسة وبؤس شديدين .

نزلت عن السرير . تمطعت . ذهبت الى الشباك ففتحته . نظرت الى الطريق . هالنى ما رأيت : أفواج من البشر يجلسون على أكوام السباخ حول القصر ، باعداد هائلة ، ظننت أنهم يعملون فى معية العوضى بيك ، ثم صححت ظنى بأنهم أهل الدائرة جاءوا يعرضون شكاواهم . غير أن العوضى بيك طرق الباب ثم دخل باسما وهو يشير لى نحوهم قائلا :

— شايف سموك .. عملت لنا مهرجانا !

— كيف .. ما علاقة سموى بهؤلاء ؟

ـ لقد جاءوا يتفرجون عليك .. وهم يجلسون هكذا من الفجر في انتظارك !

ـ كيف .. وهل أنا فرجة ؟

ـ طبعا .. ربما كانت هذه أول مرة فى حياتهم يرون فيها سمو الأمير ..

ـ ظننتهم أهل دائرتك جاءوا يطلبون مقابلتك .

ـ أهل دائرتى أنظف من هؤلاء .. صحيح انهم من بين الاصوات .. ولكن من يطلبون مقابلتى ناس غير هؤلاء .. فهؤلاء ربما لا يعرفون ما معنى وجودى !

فعرفت لماذا كان فرعون القديم يمكث حاكماً ما يزيد عن الثلاثين عاما . ثم اننى تناولت فطورى على عجل وما أن شرعت فى الخروج حتى كانت أفواج البشر قد أخذت تقترب من بوابة القصر ، وحينما وطأت قدماى أرض الشارع هجمت الافـــواج على كموج دافق . فكدت أصرخ من الخوف ، وكانت نظراتهم الشرهة المخيفة التى كانت تتابع يدى أينما تحركت تلقى الرعب فى نفسى ، وبحثت عن طريق بينهم فلم أستطع ، وصاح العوضى بيك مصرحا بأنه سيدع السيارات تخترقهم ، ولكن أحدا منهم لم يتحرك . فقال الصحافى انه سيطلب البوليس والهجانة ، وقال المنتج السينمائى أنهم يجب أن يشرفوهم أمام ضيفهم ، وقال خبير السـيارات أنه سيضربهم بالنار اذا لم يوسعوا طريقا .. ولكن لا حياة لمن ينادى .. صفوف صفوف من النساء والعجائز والأطفـــال تقف ناظرة فى بلادة كحيوان خرافى لا يعرف أى لغة .. فتكاتف رجال العوضى بيك واغلقوا البوابة .. ثم اقتادونا الى الداخل من جديد معلنين أننا لن نسافر الا بعـد أيام .

صار من الحمق مواصلة الانتظار أكثر من هذا ، ولم يكن أمامنا سوى الاستعانة بالبوليس ، لكن العوضى بيك استسخف هذه الفكرة واعتبرها وصمة فى حقه : ان تقول الاجيال القادمة انه ذات يوم جاء بالبوليس ليضرب أهـــل دائرته . أحسست أننى فى سجن رهيب . تذكرت البدع التى أنتشرت فى العالم فى هذه السنوات الاخيرة : أن يعمل مجموعة من الفدائيين على احتجاز مجموعة من الرهائن . فى العادة يكون مع الفدائيين قنابل أو أسلحة ، أما هؤلاء فبلا أى سلاح يحتجزوننا رهائن ! .. ولكن رهائن ماذا ؟ .

وبما يكون قد صور لهم الوهم انني معتد على حقوقهم ، وانني اتمتع بأرزاقهم ؟ .. ما الذي يريدونه مني بالضبط ؟ .. ان مظهرهم لا يدل على شر ، ولا ينذر بأي وعيد ، لكنهم جدار كثيف ليس من السهل اختراقه ..

قلت للعوضي بيك في شيء من التريقة وشيء من الجد :

ــ أفضل أن ترسل لهم مندوبا للتفاوض .. وليكن انت .

ضحك العوضي بيك مما يؤكد استهانته بالامر .. فقررت أن افعل شيئا يذكر بأهميتي ، ووجدتني اقول في وقار مرتعش :

ــ يا عوضي بيك اذا استمر الوضع هكذا فانني .. اقصد فانه .. قد يهدد بأزمة دبلوماسية ! ..

لحظتها لم أجد العوضي بيك في مكانه ، صار الى كرة من المطاط تتقافز من فرط الضحك الذي يفيض مرحا واستهزاء معا ، وأحسست انه فاهم كل شيء ، وأن تشبثي بالامارة ضرب من العبث لا طائل من ورائه ، فبدأت اكره الاصدقاء والرحلة من اساسها ، لكن العوضي بيك مسح عينيه وقال :

ــ لا تجزع .. فلسوف تنجاب الغمة وتخرج من هنا باذن الله سالما .

تجاهلت ما في كلامه من تهكم واضح . وقلت له بخوف :

ــ لقد مر عصر ومغرب وظهــر والناس لا ينصرفون .. كأنهم يطاردون مجرما هاربا من العدالة .. ومن الواضح انهم لا يرغبون في الانصراف مطلقا ..

ايدني الصحافي قائلا بينما يشير الى النافذة :

ــ لقد نشأ بينهم باعة يبيعون اللب والفول السوداني ! ..

دفعت براسي من النافذة ، اهتاجت الجموع دفعة واحدة واخذت تشير نحوي بأصابعها مطلقة صياحا غامضا .. فارتعشت أوصالي وضحكت رغما عني ، وهنا تفتق ذهن العوضي بيك عن حيلة لا شك أنها طريفة وبارعة :

ــ ليتفضل سمو الامير فيخلع ثيابه هذه ويرتدي حلة من حلل العريس !

قلت والله انها لفكرة . واضاف العوضي بيك :

ــ ويلبس احد رجالي ثيابك ! ..

قلت : جميل .. وماذا بعد ؟ ..

قال : ويقف أحد رجالى بثيابك هذه فى هذه النافذة ليشغل الناس .. ثم تتسلل أنت بثياب العريس خارجا من أى باب يعجبك .. وعليك أن تمشى فى أى اتجاه يصـادفك .. ويـكون الأسطى ابراهيم الفرابلى فى اثرك ليوصلك بعربتى الى القاهرة .

استحسنت هذه الفكرة ودخلت فنفذتهـا على الفور . وكانت ثياب العريس ضيقة بعض الشىء فجعلتنى أبدوا صغيرا ، ووضعت نظارتى السوداء على عينى ثم اندفعت خارجا من الباب الخلفى . فاذا بى أخـوض فى طريق زراعى تتنـاثر على جانبيه البيوت والسواقى ، وناس يجلسون واطفـال يلعبون ورجال يلعبون « السيجة » وآخرون قد استغرقوا فى النوم . ومع ذلك فما ان رأونى خارجا حتى تحفـزوا للانقضاض،لكنهم عمدوا من جديد حينما اشرت اليهم نحو البيت بمـا يعنى أن الامير لا يزال فى الداخل .

ظللت اسير فى نفس الطريق . تظهر بيوت ثم تختفى لتظهر حقول .. لتختفى بدورها وتظهر بيوت جديدة ، مما يشير الى أننى قد مررت بمجموعة من العزب والكفور ، وكنت التقى ببعض الفلاحين يسحبون الابقار ويمشون فى بلادة ، فيداخلنى يقين بأنهم يسحبون ابقار غيرهم . وكنت احب منظرهم وأحس بألا خطورة منهم على شرط أن يظلوا أفرادا . وقلت لنفسى أن هؤلاء الفلاحين الاصلاء مثل هذه الارض مثل هذه الأبقار يعطون دونما انتظار لعائد ، كالارض تنبت لاعدائها ، كالابقار تدر اللبن تسلم رقبتها لجزارها .. وقررت أن اضمهم الى مصادر ثروتى .. ان العـوضى بيك ليس أحسن منى ، وأى جزار ليس أذكى منى ، ولسوف انفذ نفس الفكرة التى طرحها امامى ليلة امس .. سوف أملكهم أبقارا وأتملكهم ..

داعبنى زفيف العربة وهى تزحف مقبلة نحوى . وسعت لها ، وقبل ان افتح بابها أخذت أمعن النظر فى ابراهيم الفرابلى كأننى أريد أن افهمه بنظرة واحدة . ثم أننى جلست بجواره فأندهش دهشة بالغة وتصبب العرق على وجهه وقال :

ــ العفو يا سمو الامير .. ان مكانكم ليس هنا بل ..

فابتسمت متعمدا اظهار تواضعى ، وقلت له الا فرق بين أمير وخفير ، فراح يدعو لى بطول العمر وراحة البال . وسألته عما اذا كان الناس قد انصرفوا فبان عليه الخجل وقال ضاحكا :

ـ انهم يا سمو الامير .. الحق انهم .. لقد رأوك فى الفرح وانت تمد يدك فى جيبك فلا تخرج بأقل من ورقة بعشرين جنيها .

مددت يدى فى جيبى لأطمئن على نقودى فوجدتها فقلت للأوسطى ابراهيم :

ـ بهذه المناسبة خذ هذه الورقة لك .

فرفض بشدة ، وظلت يدى معلقة فى الهواء بالنقود طويلا دون أن يمد يده ، وعبثا حاولت اجباره على قبول هديتى ولكنه أقسم برأس أبيه الا يأخذ شيئا لا يستحقه أكبرته أكبارا شديدا ومع ذلك ضقت به ونقمت عليه ، فعدم قبوله هديتى معناه هزيمة كل أسلحتى تجاهه ، ومن ثم فان « لمياء » تطير منى ، ان المهر الحقيقى للمياء ليس النقود بل الحب .. هذه حقيقة اعرفها جيدا .. وقد أزعم أننى أحببتها ، ولكن الأمر يختلف ها هنا ، فان تحب ليس مبررا كافيا لان تملك ، وكذلك ان تملك ليس مبررا كافيا لأن تحب .. لا تبتسموا بخبث فأنا لم اسكر بعد ولا أعتقد أننى سأسكر بعد ما عشت هذه التجربة . أقول قد أزعم هذا ولكننى لا أملك الزعم انها أحبتنى أو ستحبنى ، كل ما استطيع تأكيده اننى أمير وهى جربوعة ، أما عقلها ، أما ذكاؤها ، أما ارتقاؤها بنفسها الى مستوى الرغبة فى التعليم والنهل من ينبوعه ، فكل ذلك ليس شيئا اذا ما حرم الانسان الحياة ، أن الزهور لا تنبت من العدم ، وانما السباخ والروث يخصبان عودها ، حسن ، هذا العود اذا لم يشرب ويرتوى فما الذى يحدث له ؟ انه يذوى ويموت .. وأنا بالنسبة للمياء مروى ، وهى بدونى ستذوى وتموت بين أحضان هلف فقير يسقيها المر يعبئها بالأولاد ، أنا مستقبلها الذى أثق أنها تتطلع اليه حيث ترفل فى النعيم وتملك ما تراه فى أيدى الآخرين .. هذا ما افهمه وان غلطنى أحد فى ذلك يكون رجلا غير عملى فى نظرى ! ..

سألت الأسطى ابراهيم عن راتبه وكم يتقاضى من العوضى بيك . فقال الرجل : مستورة .. وقبل يده ظهرا لبطن . شددت عليه

الخناق حتى يقر بحقيقة المبلغ وهو مصر على انها مستورة والحمد لله . والطريف أنه بعد ذلك راح يتحدث حديثا متقطعا غير مترابط. استطعت أن افهم منه ان العشرة القديمة تفرض عليه أن يحتفظ بهذا السر ، وأنه لا يعتبر نفسه موظفا رسميا لدى العوضي بيك حتى يحاسبه بالحق والمستحق ، انما هو يخدم بدافع العشرة ووفاء بالعهد القديم ، فهو منذ رأى الدنيا رأى أن أباه وأمه يخدمان هذه الاسرة مقابل أن يعيشوا فى غنائهـــا ومن هباتها وعطاياها الدائمة ، حتى صارت خدمة هؤلاء الأولئك نوعا من الولاء وليس أكثر ، وهذا ولاء حيوانى فى الواقع رغم أنه مفرط فى الانسانية ، وأى ولاء من هذا النوع مصيره الى الانهيار المحقق بإزاء غول الحياة وولعة الأسعار ، ان الحياة رغبات غالية الثمن وليست فى قدرة احتمال سائر البشر .. فأى ولاء ذلك الذى يمنعنى من معانقة الحياة اذا جاءت لحد عندى .. وهكذا قررت التصدى لهذا الولاء حتى أهزمه ، على ان تقوم « الأجهزة التنفيذية » بتنفيذ هذا القرار على مهلها ! ..

وكشف لنا طول الطريق عن عشرات المداخل ومئات القرى والمدن والعزب وآلاف الكفور ، وعشرات اخرى مما لا هى قرى ولا هى مدن . ومن حولها الأراضى بمساحات شاسعة يصارعها فـلاحون ومصبوصو العروق سأمانين قرفانين ملقين بكل عبء على ارادة الله . وقد دخلت الى الأسطى ابراهيم من كل هذه المداخل ، فتأكد لى ان سوق الأبقار ها هنا هو فى الواقع بترول جديد ، وبهذا أكون أنا مثل كل الامراء قد امتلكت منجما هائلا ، فان أنا سيطرت على مساحة كبيرة من هذا السوق هنا أكون قد حققت لى الامارة لقبا وواقعا . لدهشتى تحمس الأوسطى ابراهيم تحمسا بالغ الشدة حينما سألته اذا كان يعرف رجلا أو أكثر أستطيع أن أشترى لهم ابقارا يربونها .. فقال أنه شخصيا ليس له فى هذه اللعبة ولكنه سيدلنى على أخيه الفلاح المتخصص فى تجارة الابقـــــار ، وعليه هو أن يوجهنى . فألححت عليه أن يقودنى اليه بمنتهى السرعة ، فأقسم أن أخاه يقطن فى بلدتهم التى تبعد عن بلدة العوضى بيك ثلاثين قرشا

فى القطار ، وانه سوف يتسلل بعربة العوضى بيك صباح غد فيعطيه عنوانى ويبعثه الى فى الفندق الكبير .

فقلت له ما هكذا يكون الكلام ، وذكرته بأنه يخاطب سمو الامير ، وبأن التصرف الأمثل هو أن يجىء بنفسه ومعه أسرته كلها مضافا اليها اخوه ، لزيارتى فى الفندق ، ونتفاهم فى الأمر ، وهذه دعوة منى لهم ، ودعوة الأمير لابد أن تلبى . وقال أنه لا يستطيع اهمال العوضى بيك يوما واحدا ، ولكن ما دام الأمير قد تنازل وعرض عليه الدعوة فانه لا يسعه الا القبول على ان يكون ذلك يوم الجمعة القادمة التى هى أجازته . فرحبت على الفور ، وكان من المقرر أن أغادر القاهرة بعد يومين على الأكثر ولكننى أجلت سفرى الى ما بعد ..

كان يوما عظيما بحق ، وممتعا وبريئا صدقونى . أنتم تعرفون أننى ولد صرماح ، أوافقكم ، وتعرفون أننى فى الافراح وفى سائر الوان الزحام والتجمعات خلبوص كبير ، أوافقكم ، لكننى أقسم لكم ان ذلك اليوم كان فى منتهى البراءة ، أرجوكم لا تسيئوا الظن بلمياء ولا بأبيها ولا بأمها .. فالواقع أننى فوجئت فى لمحة قصيرة جدا بأسرة كاملة تحيطنى وتحولنى الى ابن من أبنائها ، فى البداية حاولت الاحتفاظ بتقاليد الامارة ولكن درجة الدفء كانت شديدة فأذابت كل الاقفال ، ودرجة الصدق كانت صافية الى حد كاد يقودنى الى الاعتراف بحقيقتى بل الى نبذ الامارة والنظر اليهـــا باحتقار ، مجموعة من النماذج الانسانية لا تمل من العطاء ، كأن الرعاية واوضـــاع الأمن والأمان والحب وظيفتهم الرئيسية فى الحياة . الأم فلاحة قصيرة القامة حلوة التقاطيع تنم عن جمـــال آسر ذوى منذ قليل ، فى صوتها بحة تتحدى الصوت الانثوى بما جبلت عليه من رقة وهدوء ايقاع يفيض بالحنان . والأخ فـــلاح تعود على ان « يسهر على » ، فحياته سلسلة لا تنقطع من السهر على أشياء تحتاج لسهر ، اما أرضه القليلة أو أرض غيره ، أو ابقار غيره ، أولاده أو أولاد غيره . والأوسطى ابراهيم مثال للوفاء والوقار والطيبة الخالدة . و « لمياء » .. تصوروا ان لمياء هذه التى صنعت بينى وبينها حاجزا شفافا لكنه صلب اتضح انها قطة صغيرة واليفة جدا .. واتضح أيضا ان لها صورة أخرى أصغر منهـــا قليلا هى شقيقتها « سامية » الطالبة فى الاعدادية هى الأخرى غير انهـــا

متخلفة سنة دراسية واحدة عن لمياء .

طلبت لهم القهوة والشاى فصارت الأم تذعر كلما مددت يدى فى جيبى واخرجت نقودا ، كأننى أخرجها من جيبها هى ، وكأننى من المفروض أن أخزنها ، وكانت ترتاع من المبالغ الفكة التى أهملهـــا للجرسونات وغيرهم ، وتكاد تثير فضيحة فى الفندق الكبير بنصائحها العالية الصوت وتحذيراتها لى من طمع الناس وفراغ أعينهم . ولقد أحسست بسعادة غامرة فكأننى بعد غياب طويل عثرت على أمى الحقيقية التى أحس بصدق أنها تخاف على وتخـــاف على اموالى ، فضلا عن أن تكون طامعةفى . فداخلنى حب شديد لهـذه الأسرة ، وقررت بينى وبين نفسى الا أفرط فى لمياء مهما كانت الظروف والأسباب .

ثم أننا تهيأنا للنزول ، ولم يكن موعد الغذاء قد جاء ، ففضلت ان نتجول فى المدينة قليلا ، وكان فى تقـــديرى أنهم زهقوا من القاهرة باعتبارها بلدهم ، لذلك كنت أشعر بقليل من الحرج لأننى أجوب بهم أماكن لا تعنى شيئا بالنسبة لهم . ولكن .. صدقوا أو لا تصدقوا ، كانوا فى غاية البهجة ، وكان من الواضح انهم يجيئون هذه الاماكن لأول مرة ، تصوروا ، بل كانوا ــ الأم والأولاد والأخ ــ يسألوننى عن أسماء الأماكن بل وبعض الشوارع التى نتجول فيها بعربتى . وكانت دهشتى عظيمة وأنا أرى « لمياء » وشقيقتها « سامية » تنتفضان من الفرح فيما العربة مقبلة على الأهرامات ، وكانتا تصيحان بألفاظ وعبارات نزقة تدل على انهما لم تريا هذه الأهرامات من قبل ، وصارت الأم هى الاخرى تندهش لدهشتهم ، ولا تعرف لماذا هذه الاهرامات تثير الدهشة ، ويقول لها أولادها انهم يدرسون هذه المقابر فى المدارس فتزداد دهشة الأم من أن تهتم الحكومة بتدريس المقابر للأولاد .

نزلنا من العربة وأخذنا نسير حول الأهرامات ، ووجدتنى أقوم بالشرح بقدر ما سمحت به معـــلوماتى عن الأهرامات ، ولم أمنع شقاوتى فى هذه اللحظة من التوهج ، فرغما عنى رحت أشرح لهم عن هذه الأهرامات باعتبارها دليلا على الذل والعبـــودية التى كان يعيشها المصريون القـدامى وكيف انهم بالسخرة اقاموا هذه الأبنية للفراعين الجبابرة . وصدقوا جميعا فيما عدا « لمياء » فقد نظرت الى نظرة استنكار تكاد تصل الى الغضب ، فعرفت انهـا من الذكاء

بحيث لن استطيع اللف عليها فيما بعد . ولكننى عرفت أيضا انهـا متطلعة الى الحيـاة بكل ذرة فى كيانها ، وان تحقيق الرغبـات والطموحات المادية هو انجح الاسلحة فى السيطرة على هذه الأسرة سيطرة كاملة .

انهينا جولتنا فى منطقة الاهرامات وعدنا الى وسط المدينة ، ورغم شدة الزحام الذى يتطلب منى تركيزا مكثفا فى قيادة العربة الا اننى لاحظت لمياء بكل دقة، وكيف كانت تنبهر بما ترتديه فتيـات فى سنها من فساتين شارع الشواربى وتكاد عينها تتساقط حسرات كلما رأت زحاما حول شىء يباع ، وكنت أوجه بعض الاسئلة من حين الى حين ، وبشكل متحفظ ، فعرفت ان هذه الاسرة رغم انتمائها للعوضى بيك ليس فى بيتها أى شىءمن مستلزمات البيت الحديث، وليس عندهم جهاز تليفزيون ولا بوتاجاز ولا غسالة ولا ثلاجة ، فاسفت لذلك اسفا شديدا بقدر ما فرحت لأن سيطرتى على الأسرة أصبحت فى حكم النفاذ . دخلنا اكبر مطعم فى وسط المدينة ولاحظت الأسرة وهى « ملخومة » فى محاولة اظهـار الأمر وكأنه طبيعى بالنسبة لهم ، مع انهم أثاروا فى الجو الارستقراطى جوا سوقيـا عالى الصوت بما فيه من لوم ومجادلات وجر ترابيزات واندلاق أكواب ، سألهم الجرسون عن طلباتهم فحاروا ونظروا الى ، فطلبت لهم بمعرفتى حماما مشويا وكبابا وملأت الترابيزة بأطباق لا حصر لها ، لدرجة أنهم من فرط حيرتهم لم يأكلوا جيدا ، كما أنهم اهملوا أطباقا عظيمة لمجرد انهم لا يعرفون كيفية التعامل مع ما فيها من أصناف ولم يسمعوا بها قط فى حياتهم .

شهقت الأم وضربت صدرها بل كادت تسقط من طولها حينما رأتنى أدفع خمسين جنيها بالتمام والكمال وانصرف ، وظلت تشتم فى نفسها وتؤنب مذنبا مجهولا تسبب فى خسارتى الى هذا الحد ، فى حين كنت اكتم ضحكى وأحاول انتهـاز فرصة الزحام ونحن خارجون بوضع يدى على ظهر لمياء بشكل يبدو عفويا . وقد نجحت مرة فاستراحت يدى الى أن خرجنا ، ويبدو أن لمياء فوجئت بيدى تحوط كتفها ببساطة فارتاعت ثم ارتعشت ثم ابتعدت قليلا .

دخلنا جروبى وتناولنا قليلا من الحلوى وتناولت أنا زجاجتين من الجعة ، وأمرت بتجهيز مجموعة من الاطبـاق الحافلة بالحلوى لكل من لمياء وسامية وأمهما والعم عبد الفتاح ، فلما جىء بالأطبـاق

كبيرة ، فخمة ودفعت حسابها اقسمت الأم انني فى حاجة الى من يردعنى ، وأعلنت احتجاجها بأنها لن تأخذ شيئا من هذه الاشياء غير أن الأوسطى ابراهيم أنبها فسكتت . ثم أننى انتحيت بالعم « عبد الفتاح » جانبا وأخذنا نتداول الرأى فى سوق الأبقـــار ، فأحاطنى علما بظروف السوق وبأنواع الأبقار ، ومتى نشتريها ومتى نبيعها ومتى نكسب منها وكم ! حتى خيل الى أننى أمام موسوعة لا نهائية فى علم الابقار ، ثم انه حدد لى - على وجه التقريب - المكسب الذى يمكن أن اجنيه لو أننى دفعت كذا فى كذا أو دفعت كذا فى كيت .. ثم طلب منى تقديرا محددا للمبلغ الذى أنوى دفعه فى هذه السوق فحددته له بنصف مليون على الأقل .. فغاص الرجل المسكين فى ثيابه واصفر وجهه وتملكته رعشة مفـــاجئة أسقطت السيجارة من يمين اصابعه عدة مرات ، وكان ينظر الى كأنه يبحث عن المزاح فى عينى ، فلما أكدت له أننى جاد أخرج من جيبه ورقة مطوية فردها امامى فقرأت قائمة بأسماء تصل الى المائة وقال لى انهم هم الذين استطيع أن أضع أموالى فى بطنهم وان كل واحد منهم يستطيع رعاية قطيع من الماشية ، فكلهم فلاحون مشهورون بتربية الماشية كما أنهم يملكون حظائر كبيرة . ثم قال لى أيضا أننى يجب أن أكون متواجدا باستمرار فى القرية حتى أستطيع الاشراف على محصول اللبن .. فعرضت عليه أن يكون وكيلا لى فى هـذا الأمر ، فوافق وأرشدنى الى مشروع جانبى يمكن أن يقوم هو به : أن أؤجر له دارا كبيرة وأجهزها ببعض الأوانى لكى يتلقى فيها محصول اللبن ، ويتخذ من هذه الدار معملا يقوم بتصنيع السمن والزبد والجبن والمش وما الى ذلك من المنتجات الألبانية .. وراح يحدثنى عن المطلوب فكشف لى عن خبير بالفلاحة والألبان عمره سبعة آلاف عام على الأقل . ولقد تم الاتفاق بيننا على أن يقوم هو بتمهيد الطريق مع هؤلاء الفلاحين لحين عودتى فى الزيارة القريبة القادمة .. حتى اذا ما جئت أنا سافر معى الى أسواق الثلاثاء والاربعاء والاحـد والجمعة فى عديد من البلدان ليقوم هو بانتقاء الماشية الصحيحة البدن وما على الا أن أدفع ، وسوف يكون كل فلاح من هؤلاء موجودا عند الشراء ليسحب بهيمته ويصبح مسئولا عنها من لحظتها .

الواقع لقد أحببت هذا العم حبا كبيرا ، ولكى أحكم السيطرة عليه قلت له أن عليه أن يعتبر نفسه موظفا عندى ابتداء من هذه

اللحظة . ونفحته مائة جنيه على سبيل العربون ، فارتعشت يده ولم يضع المبلغ فى جيبه الا بعد الحاح منى كأنه غير مصدق ان هذا المبلغ قد صار له .

وكان وداعى للأسرة حافلا وعظيما ـ سلموا على وقبلونى واحدا واحدا والدموع تتساقط من أعينهم جميعا كأننا اخوة منذ عشرات السنين . وطلبوا منى تحديد موعد للعودة فحددته بعد مرور شهر واحد من سفرى . وقلت لهم اننى سوف انزل من الطـــائرة على قريتهم مباشرة ولأكون ضيفا عليهم فى منزلهم طوال مدة اقامتى . فجنوا لهذه الفكرة جنونا خلابا ، واقترح الأوسطى ابراهيم أن ابلغه بواسطة خطاب لكى ينتظرنى فى المطار ، فوافقت على ذلك وانتويت تنفيذه بكل حذافيره ..

أتذكرون يوم تلفنت لـكم فجـــأة وقلت لـكم اننى كنت فى القاهرة ؟ .. كنت يومها قد أتممت اسبوعا على العودة ، وقد فضلت عدم الاتصال بكم خـوفا من سهراتكم التى اخشى أن تجرنى الى الحديث عن موضوع لم ينته ، نعم وكنت من جانب آخر مشغولا بأمر تدبير مبلغ اشترى به أبقار القاهرة ، وقد شرقت وغربت وصنعت الحيل الكثيرة مع البنوك ومع الاصدقاء التجار حتى جمعت مبلغـا يقترب من نصف المليون جنيه مصرى ، ثم استخسرته فى الواقع ، ورأيت المساهمة بنصفه والاستفادة بالباقى فى متجرى ، ثم عدت فاستخسرت النصف ورأيت المساهمة بالربع . واخـــيرا خفت من التضحية بمبلغ كهذا فقررت المساهمة ببضعة آلاف لا غير ، وكنت قد تعاقدت فى القـــاهرة على صفقتين كبيرتين بواسطة الصحافى وخبير السيارات فلما شرعت فى تنفيـــذها وجدت أن عائد الربح منهما يكفى لأن العب به وحده فى سوق الماشية .. ومع ذلك اخذت مبلغا كبيرا وعدت القاهرة .

كان الأوسطى ابراهيم الفرابلى فى انتظارى فى مطـار القاهرة كما اتفقنا . وكنت قد اتصلت بخبير السيارات ورجوته ان يسلم عربتى المؤجرة الى الأوسطى ابراهيم حتى لا نحتاج لعربة العوضى بيك . وقد صرفت فى المطار مبلغا لا بأس به تمكنت بسببه من الافراج عن حقائبى فى الحال ، وهى فى الواقع لم تكن مجرد حقائب بل كانت اشياء ثقيلة ، ثلاجة وغسالة وتليفزيون ملون وبوتاجاز لبيتى الذى نويت انشاءه فى القاهرة لكى اتركه للأوسطى ابراهيم فيما بعد .

واطنان من الملابس الفاخرة التى تدير راس لمياء .

حملت عربتى وعربة اخرى نصف نقل ، وقادنا الاوسطى ابراهيم الى قرية تقع هناك فى منطقة نائية من شـــمال الدلتا فيما بين المنصورة ودمياط ، اسمها « كفر المساخيط » ، يقولون انها سميت هكذا نسبة الى ما كان يوجد بها من تماثيل أثرية يطلق عليهـــا العامة اسم المساخيط ، ويقولون أنها سميت هكذا نسبة الى أهلها انفسهم باعتبارهم مجرد مساخيط تأكل وتشرب وتفلح الارض . كان الأوسطى ابراهيم هو الذى يذكر هذا ضاحكا كانه يتكلم عن ناس لا يعرفهم . فلما دخلنا كفر المساخيط فوجئت بأنها قرية كبيرة ولها طرق مرصوفة وبها بيوت أقرب الى العمارات ، فاندهشت من أن يكون فى مصر كل هذه البلدان وكل هؤلاء البشر ثم يكون هناك فائض للرصف والكهرباء وما الى ذلك ، ولو أن هؤلاء البشر كلهم فى بلد غير مصر يتناوب سرقتهـــا ونهبتها قوافل وراء قوافل لزحف أهلها على المناطق المتاخمة واكلوا أهلها اكلا .. فوجئت أيضا بعربات ملاكى وموتوسيكلات وحناطير ، وبنات تلبس آخر موضة ــ كذلك فوجئت بمحلات تبيع الأقمشة وتختزن من البضائع ما يوازى راسمال دولة نامية . واخيرا وصلنا بيت الأوســـطى ابراهيم فاذا بهم قد صنعوا لعربتى طريقا لطيفا مفـــروشا بالزلط المبشور والرمل . فتصنعت التألم وقلت لماذا هذا التعب يا أوسطى ابراهيم ، فأقسم أن الذى فعله هم الرجال الذين جئت لكى املكهم الابقار .

كان البيت عبارة عن شقة بالدور الثانى لبيت من دورين اثنين داخل حارة سد ، وكانت الحارة كلها قد خرجت عن آخرها ووقفت فى الأبواب وعلى الأسطح تتفرج على وتشرئب بأعناقها فى فضول كبير .. الشقة مكونة من ثلاثة غرف ضيقة ، بها من الاثاث كنبة وثلاثة كراسى خيزران وسرير حـديد بعمدان ، وبوريه قـديم ، وترابيزة كترابيزات المقاهى يذاكر عليها الأولاد . أفرغت نصف النقل من محتوياتها ، وجىء بها الى الشقة تقافزت الفرحة على وجوه كل أهل الحارة بل زغردوا من أجل الفرح الذى حل بجارهم ، واقتحمت الشقة وفود من النساء والبنات الجميلات والصبيان يتفرجون على الأشياء ، فصعب على القول بأن ثمة أشياء لى وثمة أشياء لهم ، وسكت ، فاعتبرتها كلها أشياءهم ، وكان شعورى بالنشوة لا حد له ، فقد تحققت من معنى العبارة التى رددها الصحافى ذات يوم ،

وفهمت كيف ان الأمم يمكن ان تقاد باستثارة شهواتها .

ثم ما لبثت وفود الرجال ان اقبلت حتى اكتظت الشقة تماما ، فانتقل الجمع الى دار الأخ « عبد الفتاح الفرابلى » ، وهى اوسع كثيرا ، حيث جلسنا على الحصائر ورحنا نتبادل المشورة فى اسعار الابقار وانواعها .. وفى النهاية قر قرارنا على البدء بأقرب سوق وهو سوق الثلاثاء الذى يقام فى بلدة مجاورة .

كان المفروض اننى ضيف على اسرة الأوسطى ابراهيم الفرابلى ، وان الأشياء التى دخلت بها بيتهم ــ باستثناء القليل منها ــ سيؤول اليهم على سبيل الهدية التى تليق بسمو الأمير . ولكن الليل حمل مفاجآت غريبة ، فقد وفد الى دار العم « عبد الفتاح » رجال من علية القوم ، وحضرت وفـــود من المدرسين والممرضين والفلاحين والاجراء ليسلموا على ويشاركوا فى الاحتفال بى ، والواقع انهم كانوا يكشفون عن السبب الحقيقى وراء زيارتهم بحديثهم الملح عن عقود العمل المطلوبة لهم فى بلادى .. فكنت امنح الوعود عن يمين وعن شمال وبلا تحفظ ، فهى مجرد وعود تليق بسمو الأمير .

غير ان اغرب شىء فاجانى به المساء هو اننى تذكرت مجموعة من زجاجات الويسكى احضرتها فى حقائبى ، فبعثت بمن يأتى بواحدة او اثنتين أو ثلاث افتحها على ذمة الحضور ، ولكن « المرسال » ــ وهو الأوسطى ابراهيم نفسه ــ عاد بعد مدة طويلة دون أن يحمل شيئا . ثم اقترب منى وهمس فى اذنى انهم لا يستطيعون فتح أى من حقائبى الا فى حضورى ، ان كان لهم أن يفتحوها ! .. فلم افهم معنى هذا على وجه التحديد واحسست بغضب شديد ، ولكن الحضور تكفلوا باعتقـــــال غضبى ، اذ راحوا يتبارون فى رص الحشيش والدخول على بالجوزة والنكات الحارقة حتى تمنيت أن اقضى بقية العمر جالسا هكذا فوق الشلتة والمسند من خلفى وكل هؤلاء يعملون على تصحيح مزاجى وادخال البهجة والسرور على .

وعند آذان الفجر خرجوا واحدا وراء الآخر حتى صفصف المقعد علينا : العم « عبد الفتاح » . و « الأوسطى ابراهيم » ، و « أنا » واصر العم « عبد الفتاح » على ان ابيت فى داره ولكن « الأوسطى ابراهيم » كان قد استعد بادارة محرك العربة حسما للموقف ، وحملنى الى داره على هودج الصباح ، فلما استقر بنا المقام على الكنبة كان النوم الوافد قد طار ، وكان اهل الدار قد استيقظوا

وجاءوا ، وتلقفتنى الزوجة بالتعنيف : كيف اتصور أن باستطاعتهم فتح حقائبى حتى او باذن منى ؟! فاندهشت وقلت لهم ان حقائبى هذه ليست حقائبى وحدى وانما هى لهم ، الست الآن واحدا منهم ، فهزت الزوجة رأسها فى رفض بات ، وقالت أن الحقائب هى حقائبى وستظل حقائبى الى ما لا نهـاية . قلت : ولكن بهـا هداياكم .. فقالت : وما مناسبة الهدايا ؟ اننا لم نفعل شيئا تستحق عليـه الهدايا ، اتحب أن تتقول الناس علينا بالزور والبهتان .. اننا ان قبلنا منك شيئا ولو جوربا واحدا فسوف يتهمنا الناس هنا بأننا أعطيناك شيئا فى مقابله ، وأن من حقك ومن حق أى أحدا أن يقدم هدية الى أحد . ولكننا ليس من حقنا أن نقبل هذه الهدية لأن ثمنها سيكون أغلى ما نستطيع !؟ ..

قلت والغضب يكاد يعصف بى : ما هذا الكلام الغريب ؟!

فاستطالت قامة هذه الزوجة القصيرة لا أدرى كيف ، ومالت نحوى هامسة فى ود كبير قائلة :

ـ يا سمو الأمير نحن ناس غلابة .. ولدينا ولايا .. انت سموك ترى لمياء .. وسامية .. فتاتان فى الاعدادية .. عروستان .. والناس لن تسأل عن الحقيقة حين ترى على اجسادنا اشياء منك .. انها لن ترى من الحقيقة شيئا الا هذه الهدايا .. ولن تتساءل : لم الهدايا ؟ .. لأنها ستقرر من البداية انك لم تعطنا شيئا الا جزاء ما اخذت منا .. وما الذى ستأخذه منا ونحن فقراء ؟ .. اتفهمنى يا سمو الأمير ؟ .. انك لن تأخذ منا سوى .. سوى .. انت تعلم أن لدينا ولايا .. هأنا قد قلت لك كل شىء يا سمو الأمير ..

لابد أن مطرا كان يرخ على وحدى ، لأن تيارا من البرودة راح يغزو جسدى من قمة راسى الى اخمص قدمى ، ورحت أدقق فى هذه المرأة القصيرة الحافية ، واستعيد كلماتها لأبحث فيها عن مبرر يجعلنى احتقرها واكرهها ، فلا أجد فيكون ذلك فى ذاته مبررا لأن اضيق بها اشد الضيق وصاح فى داخلى صوت يريد أن يريح أعصابى قائلا : انها تدبر لصفقة أكبر ، فـلا تأكلن من كلامها ، واستجابة لهذا الصوت رأيت أن أوافقها على رأيها تمهيدا لكشفها على حقيقتها فى ظرف لاحق . ونمت هذه الليلة كالمضروب على أم رأسه بالحذاء . فأنا لا يمكن أن أقتنع بأن مصرية فقيرة فى هذا الزمن تستطيع أن ترفض هدايا الأمير ، انها (بعظمة) لسانها تعترف

ان اللحمة لا تدخل بيتهم الا فى كل شـــهر مرة ، فثلاثة جنيهات تدفع فى مصروفات لمياء وســـامية خير من دفعهـــا فى كيلو من اللحم .. ثم اننا نرى المصريين فى بلادنا يكاد الواحد منهم يقتل الآخر فى مقابل قرش أزيد ، ونرى منهم المساخر فى الدس لبعضهم بعضا وفى تدبير المكائد لبعضهم بعضا .. ثم تجىء امراة كهذه تكمل عشاءها نوما كما يتندر المصريون ، وترفض هديتى مدعية العفة والشرف ؟ .. اى عقل يصدق هذا ! ..

فتحت عينى عند الظهيرة على كوب الشاى باللبن . ثم قدموا لى صينية عليها طبق به قطعة من الجبن القريش ، وطبق آخر به بيضتان مقليتان ، ورغيفان كبيران ، وحزمة من البقـــدونس .. وشاركنى « الأوسطى ابراهيم » فى الاكل ، وكنت احس للطعام بمذاق لم أعهده فى حياتى . ثم جاءت أكواب الشاى تحملها لمياء ، فما أن رأيتها حتى تكهربت اعصابى وخيل الى اننى لم ارها منـــذ شهور طويلة ، واحسست بشعور غامض نحوها ، شعور هو مزيج من اليأس والاصرار والنفور والجاذبية ؟ . ثم جاءنى شعور بالانقباض ، أردت ان القى بآخر سهم فى جعبتى ، قلت :

ــ اوسطى ابراهيم .. ناد زوجتك اذا سمحت ..

فنادى على الفور :

ــ تعالى يا أم لمياء ..

فجاءت على استحياء .. ثم تربعت بجوار زوجها .

قلت لها كأننى القى لنفسى بطوق النجاة :

ــ اننى أطلب القرب منكما فى لمياء ..

فهبط عليها وجوم صحبه توتر خفى ولكنه عنيف ، احسسته بدقة ، حتى أن عينى « الأوسطى ابراهيم » تحولتا فجأة الى كأسين من الدم . وشفط كوب الشاى دفعة واحدة ثم رمى بالكوب ، ولم يتكلم بشىء . وزمت الزوجة شفتيها وغابت فى شرود استشعرت فيه الأسف ، فحل بى الارتباك ولكننى تماسكت :

ــ ما رأيكما ؟ ..

شوح « الاوسطى ابراهيم » فيما يكاد يكون قرفا :

ــ هاك أمهافاسألها ! ..

وكان على وجه الأم احساس عميق بالرهبة ..

فشوحت هى الأخرى وقالت :

ــ والله ما أدرى ما أقول !

واستدرك الأوسطى ابراهيم :
ــ فلنرح انفسنا ونأخذ رأى البنت نفسها .. تعالى يا لمياء .
جاءت لمياء .. جلست بجوار أمها ، نظر « الأوسطى ابراهيم نحوها وأشار نحوى فى لهجة تخفى استهجانا عميقا :
ــ سمو الأمير عايز يخطبك .. ايه رايك ؟ ..
ــ يخطبنى أنا ؟ ..
واشارت الى صدرها كأنما لتمنع شهقة على وشك الانفجار ..
ــ يظهر هذا ..
هكذا علق « الأوسطى ابراهيم » .. فاغتظت منه .. وتعلقت بشفتى « لمياء » فنكست رأسها برهة طويلة ، ثم رفعت رأسها ناظرة الى أبيها ثم ناظرة الى قائلة :
ــ لا .. !
ــ ماذا .. ؟
هكذا صحت وانا امنع نفسى من الانتفـــاض حرصا على مظهر الامارة ، واستطردت « لمياء » فى بساطة آسرة :
ــ لا تؤاخذنى يا سمو الامير .. انا ابنة رجل فقير كما ترى .. وهذه هى عيشتنا كما ترى .. وانت سمو الامير .. فكيف هذا ؟!
ــ خذوهم فقراء يغنيكم الله ..
ــ والله لا أوافق .. انك سوف تظل طول عمرك سمو الأمير .. وسأظل طول عمرى ابنة « الاوسطى ابراهيم » السائق ! ..
ــ ستكونين زوجتى على سنة الله ورسوله ..
ــ لن اسعدك .. سأكون مشكلة فى حياتك .. وسوف تضيق بى .. أنا واثقة !
ــ من أدراك ؟
ــ انا أعرف نفسى .. أنا أحب ان يكون زوجى فى مستواى .. لكى أستطيع العيش معه فى سلام .. انا .. يا سمو الأمير .. احب .. أن اكون زوجة .. وانت تطلب جارية .
وابتسمت الزوجة لأول مرة وهى تقول بسعادة غامرة :
ــ من أين تجيئين بهذا الكلام يا بنت .. والله عال .. فتحت المدارس أعينكم .
وعلق « الأوسطى ابراهيم » كأنه ينهى الموقف خوف المزيد مما يحرجنى .

ـ البنت بصراحة وراها تعليم تنوى أن تكمله .
ـ يمكن ان انتظرها حتى تتمه .. اخطبها وانتظر ..
واذا بالرد الذى لم أكن أتوقعه يصفعنى من « لمياء » :
ـ يا سمو الأمير .. انت اتيت الى هنا لتشترى الابقار .. لا لتخطب عروسا .
وكانت هذه هى الضربة القاضية التى سقطت على اثرها مغشيا على ، ولم افق من ذهولى الا حين ارتفع الصوت الذى بداخلى يقول :
ـ احذر ان تأكل من هذا الكلام ، لا تنسى انك تتحـــاور مع مصرية ،اى انك تتحاور مع شيطانة ناعمة ، تريد أن توهمك بالامانة والشرف والصراحة و .. و .. الخ .. هذه الفرشة التى ستوقعك بعدها فى حبائلها لا محالة . وهنا وضعت فى ابتسامتى كثيرا من الخبث ، وقلت كأننى انتقم من طول لسانها :
ـ اى نعم جئت لأشترى الأبقار .. وهذه الأبقار يمكن ان تكون لك ..
ـ انا لست راعية .. ولا انوى ان اشتغل بالجزارة .
ـ أقصد اننى يمكن أن اكتبها باسمك .. لتكون ملكك لك وحدك ..
ـ فى مقابل ان أتزوجك ؟ ..
ـ باعتبارك ستكونين زوجتى .
ـ هه .. انت اذن تتطالبنى ان أتزوج الأبقار ؟!
فلم أجد ثغرة فى الجدار انفذ منها الى التلاشى واحسست اننى أقل من لا شىء . وهذا الشىء الذى هو جسدى أحسست كأنه عبء ثقيل . كنت أبحث عن منديل ، وقفزت « لمياء » كالقطـــة السيامية وناولتنى منديلا لا أعرف من أين خلقته لحظتها ، وكانت تنظر فى ، وكنت انظر فيها ، فأرى فى عينيها الواسعتين حنوا كبيرا ، يكاد يقنعنى انها أم عمرها سبعة آلاف عام ، وكنت واثقا ومدركا أن كل مشاعرى المهانة منعكسة فى عينيها ، وانها تحتوينى بنظرتها وتواسينى كأنما جرحنى ناس آخرون ! . وكان الصمت العميق قد تجسد على المكان ، وكان ثمة ريح مجهولة تهيل الرمل الساخن على رأسى ، ثم جاء صوت « لمياء » مبللا بقطر الندى .
ـ هل اغضبك يا سمو الأمير ؟

تخلقت الابتسامة على شفتى وكان ميلادها بسبب لى الما لديدا ، قلت :

ـ طبعا يا لمياء .. فالانسان يعز عليـــــه أن يتقرب الى ناس فيرفضونه .

احمر وجه « لمياء » وجالت على ملامحها عواصف من الحـزن والاحساس بالذنب ، اما الوجهان الآخران فلم اكن احفل بوجودهما. لكن صوت « أم لمياء » شدنى بما فيه من صدق واخلاص وصفاء غريب :

ـ بالعكس يا سمو الأمير .. نحن ناس غلابة .. ونحن لا سمح الله لا نرفضك .. اننا وتربة خالى ... لسنا نحب أن نفعل شيئا تندم عليه فيما بعد اننا .. والمصحف .. نرفض انفسنا من مكانتك انت .. سمو الامير .. وتريد أن ترفعنا الى نسب الامارة .. وهذا شرف كبير لنا .. لكننا نخشى ان انت تركتنا لسبب من الاسباب ، أن نسقط محطمين .. ان اهلك الأمراء سوف يحنقون عليك لأنك تزوجت ابنة السـائق .. انت ستدافع عن زوجتك أى نعم .. فكرامتها من كرامتك مهما كان .. لكنك فى النهاية سوف تميل الى الكفة الأرجح ، كفة العائلة بالطبع .. وسوف لن يثنيك شيء عن اخمادها بأى شكل .. فما اسهل أن تعطينا ثمن التبرؤ منا عند اللزوم .. اننا لا نحب ان ننظر الى فوق .. وانت ايضا الا تنظر الى تحت ! ..

فما الذى استطيع ان أرد به على امرأة فيلسوفة كهذه ؟ . فى تلك اللحظة فقط احسست بأننى احتقر الامارة وأكرهها ، فلو كنت شخصا عاديا فلربما نجحت فى الحصول على « لمياء » ، انهم يخشون الامارة ، أما شخصى أنا فلعلهم يحبونه ، ولكن من يدرى ، لعـلهم يحترموننى من أجل الامارة،، ولعلنى بلا امارة لا أساوى الاحترام فى نظرهم ، ثم ارتفع الصوت الذى يداخلنى يقول ان كل الاصدقاء الذين قاموا بمغامرات فى مصر لم تصادفهم امرأة كهذه او موقف كهذا ، ترى هل كل الاصـــــدقاء يكذبون حين يحكون عن مصر ما يحكون ؟ . أم أننى سيىء الحظ ؟ ووجدتنى أرد على هذا الصوت بأن مغامرات الاصدقاء هى التى خلقت مثل هذا الموقف ، فلو لم يغامروا بسمعة الأمراء لما حدث موقف كهذا . ايتها الامارة كم من الجرائم ترتكب باسمك .. ثم ضحكت ساخرا ، ونهضت واقفا ،

فنهضوا جميعا بشكل آلى ووقفوا صامتين .. قلت لهم اننى آسف اذ اضطر الى السفر الى القـــاهرة الآن . فسألنى « الاوسطى ابراهيم » عن موقفى من مشروع الأبقار فقلت اننى سوف أعود يوم السوق المتفق عليه أى بعد يومين . وبدات أسلم ، فسلموا على جميعا بحرارة ، وسـبقنى « الأوسطى ابراهيم » وراح ينقل كل اشيائى الى العربة ، وأخذت أراقبه فأراه لا يبقى على اى شيء . ثم أنه تركنى وغاب بضع دقائق ، ثم عاد بعربة نصف نقل من نفس القرية وصار يحملها بقية أشيائى وأنا أتابعه فى حزن شـديد . وكنت انتظر المعجزة التى تتحقق فجأة فيتضح لى أنه غير جاد فيما يفعل ، ولم اكن بعد قد قررت ما الذى سأفعله بكل هذه المنقولات ، واين سأذهب بها . لقد كنت اجرى مناورة ولكنها فشلت وصرت فى موقف لا أحسد عليـه وصـارت الامارة على وشك الوقوع فى الاوحال ، وكان الاوسطى ابراهيم يتلكأ فى نقل الاشياء ، ويتمهل ، ويعيد الترتيب ، على العربة بهدوء أعصاب منقطع النظير ، فـكان يخيل الى أنه يتعمد هذا ليعطينى فرصة للتراجع عن السفر ومن ثم تبقى الاشياء عندهم كجزء من مؤامرة الرفض الهادىء الذى يؤدى الى ان يبتلعونى ابتلاعا الامر الذى جعلنى أتذرع بهدوء الاعصاب أكثر منه لايهامه اننى جاد فى السفر .. فاذا بى أكتشف أنه يتمهل هذا ليعطى الفرصة للحارة كلها وربما لأهل البلد كلهم ليروا اننى أخرج من عندهم بكل أشيائى كما دخلت .. فعرفت ان الفـلاح المصرى فى بساطته خادع كمياه النيل بقدر ما يحمل فى تكوينه من اخلاق النيل ، ترى فيه بقعة مرتفعة مفروشة بالحشائش فتظنهـا جزيرة صغيرة محاطة بأعماق لا نهاية لها ، وربما اتضح كما تقول حواديتهم أن هذه الجزيرة ظهر تمساح كبير نام مخدرا بعد وجبـة كبيرة .

ـ تفضل يا سمو الامير ..

فوجئت باننى جالس على كرسى أمام الباب والاطفـــال حولى بالعشرات ، حفاة عراة يعف الذباب على مؤخراتهم وعيونهم ، وبقايا الوسخ عالقة بأجسامهم الضامرة ، وكنت أخشى أن يلمسنى أحدهم فيلوث ثيابى أو يشير قرفى ، ولكن هؤلاء الحفـــاة والعراة كانوا يشيرون الى ساخرين ، ويتساءلون بلغة طريفة لماذا الف هـذه الملاءة عن رأسى ، وبعضهم يسألنى عن اسمى ، وفى عيونهم لمعة

بريئة ممزوجة بخبث لعله ذكاء . خيل الى أنهم بعد قليل سيكبرون ويصبحون رغم بؤسهم الشديد ـ رجالا أشداء يصبح منهم الرؤساء والوزراء والخطباء الذين ينغصون علينا عيشنا ، قد ينشأ من بينهم بطل جديد يهدد عروشنا اشحت ببصرى عنهم فى قرف وقد جال بخاطرى ان وباء مهما كان عاتيا لا يمكن ان يفنى هذا النمل البشرى الذى يريد ان يشاركنا فى أرزاقنا . وقع بصرى على جنــدى يمسك مدفعا رشاشا وتنطلق من وجهة ابتسامة متحدية ، اخذت أتفرج على صورته المعلقة على حائط فى الشارع ، تقدم طفل وقال لى فى زهو :

ـ انه اخى .. الذى عبر ..

قلت له :

ـ عبر ماذا يا شاطر ؟

ـ خط بارليف !

قلت له مازحا :

ـ هل تعرف خط بارليف ؟

قال مشوحا :

ـ لا اعرف .. واخى هــذا عبر ومات .. ونحن أيضــا متنا كلنا ..

انزعجت :

ـ كيف (ضحكت) هانتم احياء .. فكيف متم ؟

قال :

ـ ابى يقول هذا .. وامى ايضا تقول اننا متنا كلنــا من الحزن عليه .

كان طفلا لطيفا ، فى وجهه شبه كبير من الجندى .

وقال الصوت الذى بداخلى :

نحن لسنا فى حاجة الى جنود انما نحن فى حاجة الى أيدى عاملة .. ثم داخلنى بعض الاشفاق عليه فاخرجت من جيبى قطعة نقود لعلها بريزة ، مددت بها يدى نحوه فى اغراء :

ـ خد يا شاطر .. خد دى عشانك .

فانتبه الأولاد كلهم ووقفوا مبهوتين ، ووقف الطفل حائرا مترددا امام يدى . وقلت للأطفال :

ـ ساعطيكم انتم ايضا .

فقال طفل آخر :

ـ لا تصدقوا ياولا .. انه يريد أن يأكلكم . احسست بقلبى يغوص فى الأرض . ثم تهت عن كل ما حولى ، راسى كبراد الشاى يغلى ويتنفس . هل تذكرون ما سمعناه منذ شهور قليلة ؟ اظن أن بعض الصحف التى يحررها المصريون فى بلادنا قد رددت شيئا كهذا أو لعلها كانت اشاعة من الاشاعات المهم اننا سمعناها وكانت تسرى بيننا مسرى الحقيقة : فقد قيل أن ثمة بعض الاثرياء الكبار من قومنا كانوا يتسلمون من اللاجىء المصرية اطفالا صغارا فى شهورهم الاولى من الذين استغنى عنهم اهلهم أو من اللقطاء ، بحجة أنهم يتبنونهم والواقع انهم يذبحونهم ويأكلون اجزاء من لحمهم ، حيث وقر فى اذهانهم ان لحم الاطفال الرضع يقوى الباه فضلا عن انه يطيل العمر !

لحظتها يا اصحاب .. لحظتها .. والله لا اعرف كيف اصف لكم شعورى ، لقد اوشكت على ان اكره الطفل ولكن ملامح وجهه كانت تحمل الكثير من ملامح وجه ابنى ، حتى لكأنهما شقيقان . على اننى عدت فكرهت الامارة كرها حقيقيا ، وكرهت اكثر ما كرهت ان يكون الانسان ثريا ، انتم تعرفون اننى احب الثراء ، وكل الناس قاطبة تحب الثراء وتسعى اليه ، ولكن .. ملعون ذلك الثراء الذى يسىء الى الحياة نفسها والى البشر . لا أكذبكم القول اننى حين تذكرت حكاية الاثرياء الكبار وحبهم للحم الاطفال تذكرت اننى الآخر كنت قد صدقتها ذات يوم فى بداية ثرائى ، وفى تلك اللحظة تساءلت بسرعة ما اذا كان من الممكن أن أحقق هذه الأمنية التى جالت بخاطرى ذات يوم بعيد . وكان يبدو لى أنه من الممكن أن يأكل الانسان طفلا أو طفلين فى طقتين متباعدتين طالما أن أعداد الاطفال ها هنا موازية للتراب .. ولكن لم يمنعنى من وضع هذه الفكرة موضع الاعتبار الا منظر ابنى وهو ينفسخ على مائدة وثمة ذقن طويلة تغوص فى دهنه وتمصمص عظامه . ثم اننى نهضت واقفا وقد قررت أن اخلع عن نفسى الامارة فى الحال ، ان انبذها وانبذ كل هذه الاشياء ، أن أوزعها على الغلابة اننى لم أخسر فيهـــا شيئا ، فثمنها كسبته بالفهلوة من تجار مصريين وسماسرة ، وهؤلاء التجار والسماسرة كسبوا بدورهم ، وما كسبه كلانا ان هو الا دم هؤلاء الاطفال ـ قررت ان أترك أشيائى دون أن أحمل حتى عبء توزيعها ، وان انصرف

بطولى فقط راكبا عربتى .
كان « الأوسطى ابراهيم » قد وقف صامتا فى انتظار أن أتقدم للركوب ، فى حين ركب الآخر عربته نصف النقل وجلس يرقبنا فى سأم . تقدمت نحو العربة وأنا أقول فى تفخيم لعله آخر بقية من طقوس الامارة :
ـ اوسطى ابراهيم .. الحاجات دى انا مش عايزها .
ـ مش فاهم ياسمو الأمير !
وكان شيئا ينتفض على وجهه كعصفور شرير .
قلت بينما أشيح بوجهى عنه :
ـ يعنى مش لازمانى .. انا متنازل عنها ..
وركبت وصفقت الباب ورائى صفقة لم تتخل عن الامارة مما اربكنى قليلا . مال وجه « الاوسطى ابراهيم » نحوى وقد بدأ انه سيفجر بالدم الغاضب ، وهمس فيما يشبه الهدوء الذى يسبق العاصفة :
ـ مفيش داعى يا سمو الأمير .. احنا ما نرجعش فى كلامنا ابدا ..
حاولت استدعاء لهجة تعبر عن الصدق فلم اجد كما خيل لى ، ولكننى قلت وأنا أحاول تهدئته بحركات من يدى :
ـ أوسطى ابراهيم .. صدقنى .. هذه الاشياء لا تلزمنى .. فاذا كان هناك من يحتاج اليهـا فأنا سأكون مسرورا لو تفضلت وتكرمت بتوزيعها عليهم .
فزام « الاسطى ابراهيم » كأنه أسد حبيس ، وقال لأول مرة بغلظة تتمسك بأهداب اللياقة :
ـ طب انزل سموك انت فرقها بنفسك .
قلت بضيق :
ـ عافينى من الموضوع ده .. أنت تعرفهم أكثر منى .
ـ انا ماليش دعوة .. من حكم فى ماله ما ظلم .. وهذا ليس مالى .. وانا لا أحكم فيه .
قلت بضيق أشد :
ـ خلاص .. انت حر ..
فرفع وجهه ووقف يائسا مهانا ينفخ من الغيظ ، وأخيرا التفت نحوى وقد همدت ملامحه وشحبت :

ـ طيب بعد اذنك دقيقة واحدة .

ثم اختفى ..

ظللت جالسا في العربة والاطفـــال يثيرون حولى زوابع مع الصخب ، وكانوا قد أهملونى تماما . طال الوقت ، وحتى سائق العربة نصف النقل اختفى هو الآخر . وبعد علبـة سجائر كاملة انفقتها فى تدخين الانتظار أهل من آخر الحارة « الأسطى ابراهيم » وبجواره ثلاثة رجال : ميزت فيهم كل من العمدة وشيخ البلد وسائق العربة نصف النقل ، فأحسست بانقباض شديد ، ولكننى تذرعت بالابتسام ، وتذرعت أيضا ـ ومرغما ـ بالامارة لعلها تنقذنى من أى مظهر عدوانى ، فلم أنزل من العربة كما كان العمدة ينتظر احتراما له . الأمر الذى قلب ملامحه ونثر فيها عدوانا وضيقا شـــديدين قررت مواجتهما بمزيد من الامارة ..

ومال العمدة نحوى قائلا فى احترام :

ـ ايه يا سمو الأمير .. لماذا لا تأخذ أشيائك ؟!

فقلت بعنجهية ندمت عليها :

ـ انا متبرع بها للفقراء والمحتاجين .. وزعها انت أو شيخ البلد عليهم .

ـ ولماذا تضعنا فى مسئولية ؟ .. اننا مهما فعلنا لن نكون عادلين وستجر علينا القال والقيل ووجع الدماغ .

قلت بعجرفة :

ـ اذن فاتركوها هكذا لمن يريد أن يأخذها .

وكان الغضب قد بلغ بالعمدة مداه وأراد أن ينتقم لهيبته ، فأشار لكل من السائقين :

ـ ارمى الحاجات دى يا اوسطى وروح .. سيبها فى الحارة زى ما هى كده .. وانت يا أوسطى ابراهيم خش دارك واقفل بابك .

قال الأوسطى ابراهيم :

ـ بس هو أمانة .. سمو الأمير أمانة عندى لازم أوصله بالعربية لحد مصر .. وفى نفس الوقت مش حا قدر امشى الا اما اشوف الحاجات دى مصيرها ايه ؟

ـ خلاص انت حر .. خليك .. نزل أنت يا أوسطى ..

وفى ظرف دقائق محدودة كانت اشيائى قد بعثرت على أرض الحارة ، وانصرف العمدة وشيخ البلد فى العربة نصف النقل .

وبدأ النـــاس يتجمعون ويتكاثرون حتى صرنا فى خيمة ثقيلة من البشر ، وترددت أصوات : سمو الامير مش عايز الحاجات دى .. خلاص ناخدها احنا . ثم تقدم واحد واخذ حقيبة ومضى ، فشنكله احدهم وكسر ساقه فوقع على الارض صارخا . وتقدم آخر واختلس شيئا .. فجاءته ضربة على راســه من الخلف ، وانتزع طفل شيئا وجرى ، فجرى وراءه عشرات ، وخلفهم عشرات ، ثم ان العشرات اشتبكت مع العشرات فى عراك رهيب جعل كثافة البشر تزحف بعيدا عن الاشياء . وتوسع طريقا للعربة ، فانتقلت الى مقعد القيادة وأدرتها وزحفت قليلا ، وكان العراك قد اتسع بالصوات وطلقات الرصاص .. ثم تقــدم صبى رث الهيئة حافى القــدمين فاشعل النار فى الاشياء وصار يذكيها باشعالات اخرى متعددة حتى ارتفع اوارها مسابقا أوار المعركة . بينما جازفت أنا ودست على البنزين فقفزت العــربة واجتازت الحــارة وحودت ، ثم هبطت على براعة خرافية جعلتنى أتراقص بالعربة كالبهلوان متفاديا الاخطار فما ان اعتدلت على الطريق الزراعى حتى بدأت الرعشة تهزنى ، فارتبكت، فاذا بعربة نقل كبيرة بمقطورة تثب فـــوق مؤخرة عربتى فتفعصها وتعتدل وتجرى وكأن شيئا لم يكن . وانتظرت أن تقف عربتى من أثر الضربة فلم تقف ، فظللت أمشى بهـــا وقــد داخلنى شعور قليل بالراحة اذ أن هذه الضربة الكبيرة شرف لى فى هذه اللحظة ، اذ أنها يمكن أن تنفى عن مظهرى صفة الامارة ! تلك التى قررت الا اعود اليها حتى لو منحتها بقرار رسمى !

هات كأسا يا ولد ..

« تمت »

الفهـــرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨١/٤١٨٨
الترقيـــــم الــــدولى : ٦ ـ ٠٠ ـ ٧٣٥٣ ـ ٩٧٧ ISBN

٢٠ قرشا

هذه الرواية

« صاحب السعادة اللص » واحدة من الروايات المصرية المعاصرة لواحد من كتابنا الذين لمعوا في السنوات الاخيرة في ميدان القصة والرواية حيث حصل على جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٨٠ ..

وتصور هذه الرواية عددا من النماذج الانسانية العجيبة ، التى تحفل بها الحياة ولكنها عادة لانراها بحكم اندماجنا فى الواقع أنها نماذج تكافح لتصنع من نفسها شيئا ومن حياتها جنة او جحيما وتبين لنا أن ثمرة الكفاح الانسانى تجىء دائما ممثلة لما فى نفس الانسان من قيم او اباطيل ، فاذا كان الانسان المكافح تمتلىء نفسه بالخير والامل فان ثمرة كفاحه لا تكون الا خيرا أو املا ، واذا كانت تضمر الشر والسوء فان ثمرة كفاحه تجىء شرا وسوءا ووبالا عليه بالدرجة الاولى.

كذلك تناقش هذه النماذج فكرة المال وكيف ان الانسان حين ينشغل بجمعه فقط فانه فى النهاية لا يجمع سوى الشوك ولا يحصد ابناؤه سوى الالم .

لقد حظى هذا الكاتب بتقدير النقاد فى الوطن العربى والعالمى حيث ترجمت روايته «الاوباش» و « السنيورة » الى اكثر من لغة حية، وروايات الهلال يطيب لها ان تقدم أحدث اعماله وواحدة من أنجح منجزات الرواية المصرية المعاصرة .